بين الحبّ والقدر

((١))

بيـن الحبِّ والقدر

تأليف:

باسم عبيد

بين الحبّ والقدر

تأليف: باسم عبيد

سنة الطباعة: ٢٠١١.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

الترميز الدولي: (ISBN)

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٩٦٣

تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

الإهداء....

لأبي حمزة ... الذي يدعمني في كل خطوة...

لوالدتي صاحبة الفكرة في الرواية...

لكل من صمت في وقت يباح فيه الكلام...

كلمة للدكتور نبيه الغجري بعنوان

(وقفة مع إبداع الشباب)

عندما قرأت ولأول مرة، رواية للشاب الواعد باسم عبيد.

كان إحساسي بالسعادة كبيراً، لأنني شعرت بأنني أمام موهبة واعدة في عالم الرواية.

ولا أسوق هذا الكلام جزافاً، ولأنني لم ولن أكن ناقداً في يوم من الأيام، ولكنني أقول من كوني قارئ مدمن، يشعر بقيمة الجهد المبذول، ولأن سلاسة التعبير، والدفق الدافئ الذي احتوى الكلمات والجمل، كان غنياً بالعواطف والأحاسيس، وحتى يستطيع كل منا أن يشعر بأنه يعيش مع الوقائع والأحداث، وكأنه جزء منها وهذا برأيي قمة النجاح.

سورية بلد النور والحضارة، بلد الأبجدية الأولى، سوريا كما يقول الباحث الموسيقي الصديق إدوارد شمعون:

كل موسيقى العالم تم أخذها من المخزون الموسيقي الحضاري السوري.

إذن حتى الموسيقى انطلقت بداية من هذا البلد الحبيب، سوريا أم الفكر الإنساني التي أنجبت الكثير من الأدباء والشعراء مثل ميليا غروس الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد، والذي عاش في

مدينة غادارا السورية، كما يقول المربي إحسان الهندي يذكر وأيضاً وجود قصيدة غزلية عمرها خمسة ألاف عام، ولا تقل روعةً وجمالاً عن النصوص الموجودة في الآداب المعاصرة.

سورية بلد الحضارة والفكر، بلد الأبجدية، تتجدد دائماً بشبابها، وبما يقدموه من جهد وإبداع في كافة المجالات، الحضارية والفكرية والأدبية.

كل مبدع في بداياته سوف يعاني من بعض الصعوبات، ولكن دائماً ينجح، الذي يعطي بصدق، ويثابر بلا كلل أو ملل.

الأديب يجب أن يملك مخزون ثقافي، ومعرفي كبير جداً، لكي يستطيع أن يشق طريقه في عالم الإبداع.

لذا القراءة والمطالعة والتثقيف المستمر والدائم، هي الركيزة الأولى لبناء المبدع.

فإلى الشاب الطموح، الكاتب، والأديب أتمنى أن أراك في المستقبل، مشروعاً رائداً في عالم الإبداع، وأن يكون الإرث الحضاري لهذا الوطن حاضر أمامك، للعمل على استمراريته الحضارية، ورفده بإبداعات الشباب العصرية.

الشاب الواعد باسم عبيد أرجو أن نلقاك في أعمال أخرى مميزة بإذن الله، وفقك الله وسدد خطاك.

د. نبيه الغجري

لذَّةُ الحبِّ هو الانتظار

هناك... عندَ مفرقِ الطريق

في زاويةٍ صنعَ ظلّها شجرةُ ياسمين

تعبقُ بعِطْرها فتزيدُ الحنينَ

وساعةٌ في الرُّسغِ تدُق عقارِبُها

أمَّا الوقتُ صارَ طويل

بينَ اللحظةِ واللحظة تتساءلُ الشفاه

تراها.... ستأتي

أمْ ضاعَ الموعدُ في الزحام؟

تحتَ الأقدامِ تراكمتْ أعقابُ السواجير

في ساحةٍ زادتْ فيها وطأةُ القتال

بينَ عقلٍ ملَّ الانتظار

وقلبٍ يصرخُ لما الاستعجال

لعلَّ للغائبِ عذرٌ في الغياب

والعقلُ يصرخُ... لو كانَ يودُّ لحضرَ المكان

وجُموعُ المشاهِدين تزدادُ كثرة

ثوانٍ تلوَ أخرى... ودقائقٌ تلوَ أخرى

تجتمعُ لتراهنَ على ذاكَ الجدال

الأعصابُ مشدودة

والحماسُ إلى انهيار

ضاقتْ بالصّبرِ الأذهان

والقلبُ يبكي فقدَ الآمال

ويبقى السؤالُ يدورُ على الشفاه

هل ستأتي...

أم ضاعَ الموعدُ في الزحام؟

بين الحبّ والقدر

مقدمة

هذهِ الرواية جرت أحداثها في الخمسينيات من القرن الماضي.

هناك في تلك القرية التي تشبه في جمالها الجنة، غير البعيدة عن المدينة حيث الأشجار تحاكي بجمالها السماء، والسهول الخضراء كسجادٍ فرش الأرض خضاراً عميقاً، والأنهار الجارية تروي الظمأ. في هذا المكان حيثُ نمت قصةٌ حزينةٌ تُبكي الحجر.

لم يكن فيها حروبٌ، أو معارك، ولا تشبه بتفاصيلها قصص القدماء، ومجنون ليلى، ولا تمتُ بصلةٍ لعنترة.

هنا في هذهِ القصة.. نجد الحب ارتمى في حضن الضياع، مشتتاً في الهواء. لا أرضاً تحملهُ ولا كوخاً يأويه.

في لحظةٍ نخشى فيها الاعتراف بما يجولُ في خواطرنا، فندفعُ ثمن السكوتِ عمراً كاملاً من الوجع القاسي، الذي يكادُ يمزقنا كأوراقٍ بيضاء صارت قمامة.

والذكرى تسكن الجوف، ولا تفارق، تحرك الإحساس في كل وقت دون نذير.

تأخذنا عبر الزمن، إلى الأيام التي عشناها بكل إحساس، ترسم الابتسامة، وتسرقها بسرعة البرق، وتبقينا في حسرة على كلمةٍ لو أنها خرجت في ذلك الوقت لكان تغير الحال.

في هذه الرواية قصة حبٍّ، أشبهُ بالخلود في تفاصيلها البسيطة، وتشبه الشعراء القدامى المحاربين، في سبيل الحب، طالبين الموت قبل رحيل الحبيب.

قد يكونُ خط الحروف فوق السطور سهل، لكن الحقيقة أصعب من ذلك بكثير.

حين ترى بعينيك حلمك الكبير يتساقط بكل برودٍ أمام عينيك ولا يسعك فعلُ أي شيء لتنقذ بعض المستحيل.

وكيف حين يصبح كل شيءٍ أصعب من المستحيل.

هنا لنتوقف قليلاً ونتصفحُ بعض الكلمات في قصة الجنون هذه.

وننتهي من كلماتٍ آن لها النهاية.

ونبدأ بسرد الكلمات وتقليب الصفحات بما تحمل من عباراتٍ ومعاني...

-١-

هـدوء غريـب خـيم علـى الحافلـة، وكـأنَّ العجـلات أخـذت عطلتها الأسبوعية، نام جميع الركاب شعر حينهـا محمـود وكـأن كل شيءٍ حولـه، اتخذ لنفسه قيلولـةٌ صـغيرة، ليرتـاح قلـيلاً مـن عناء السفر، فالطريق إلى القرية مازال يحتاج حوالي ساعتان.

لم يـشعر محمـود بنفـسه سـوى غارقـاً بـالأحلام، والحلـم الوحيد لديه هـو تخرجـه، وأهـل البيـت والقريـة يحتفلـون بهـذا الـشاب، ويرشـون الأزهـار والـرز فـوق رأسـه، وأمـه تطلـق زغاريد الفرح والدموع تملأ خديها الورديان.

يقطع عليه لذته بالفرح رجلٌ يسأله..؟

_كم بقي من الوقت للوصول يا بني؟

فقال له:

_ بقي لدينا حوالي الساعة والنصف يا عمـاه، أتـرى تلـك التلة هناك ما زال علينا اجتيازها.

_ يجيبه الرجل شكراً لك بني ، لكن ابن من أنت.. وكأن الرجل قد عرفه ، أو أنه يشبه أحداً يعرفه.

_ أنا ابن أبو محمود جميل الراشد.

_ عرفتك ، والدك كان في الجيش صحيح.

_ نعم ، إنه كذلك ولكنه تقاعد بعد إصابته في حرب الإنقاذ.

_ أجل فوالدك كما أعرف كان ضمن الكتيبة التي حوصرت في الجليل ، يا لها من حرب كم كانت قاسية ، وكيف حولت مجرى حياتنا.

- لماذا تقول هذا يا عماه؟

_يا بني.. آه في هذه الحرب استطاع كل عربي وطني معرفة حقيقة الغرب ، الذي كان دائماً يغشنا ، ويكذب علينا.

- أتصدق لم يحدثنا والدي أبداً عن الحرب ، مع أنني أذكر حين ذهب ، وأذكر كيف كانت الأخبار عن الجبهة تأتي إلينا كل يوم بشكلٍ جديد.

_ قد أُخفيت الكثير من الحقائق التي لا يريد أحدٌ معرفتها.

وبقي محمود يتحدث مع الرجل، حتى وصولهم إلى قرية الرجل التي تبعد حوالي النصف ساعة عن قرية محمود، ليكمل الطريق وحيداً مع ما بقي من الركاب إلى قريته.

-٢-

ها قد بدأت الحركة تضجُ في القرية الصغيرة، بعد الهدوء الطويل، الذي غمر أزقتها الترابية الغافية، تحت ضوء القمر، فلا تسمع سوى صوت حفيف الأوراق، التي تتساقط من الأشجار، تشبه في حفيفها، همس العشاق الخائفين من إيقاظ البشر، وفضح الإحساس.

استيقظت أم محمود، لتبدأ أعمالها المعتادة في إيقاظ الأولاد، وترتيب المنزل، بنشاطها الذي لم يفترُ يوماً عن الآخر ....

فاليوم عطلة، وفيه تجتمع العائلة جميعها، حتى صار هذا كتقليد متبع، فالكل يجب أن يكون موجوداً ولا يقبل أي عذر.

_ تتمتم أم محمود.. يا إلهي ما هؤلاء الأولاد الكسالى، ينامون إلى الآن، أليس لديهم حِسٌ بالمسؤولية؟ تصل جانب غرفة ولدها حسان..

_ تنادي : هيه حسان، هيا استيقظ صار الوقتُ متأخراً، والدك ذهب إلى الحقل وأنت لا تزالُ نائماً.

_ يجيب حسان متذمراً.. ماذا يا أمي، آلا تعرفين أن اليوم هو عطلة، ألا يسعني النوم قليلاً بعد.

_ لا أيها الكسول، فأخاك اقترب موعد وصولهِ، وعليك الذهاب إلى الحقل، لتأخذ الفطور لوالدك.

_ حسناً أنا قادم.

تمشي أم محمود ناحية غرفة عليا وتنادي عليها...

_ عليا.. عليّا انهضي يا ابنتي، عليكِ مساعدتي في أعمال المنزل.

_ حاضر أمي إنني أبدل ملابسي وآتيكِ فوراً.

_ أم محمود تكلم نفسها ... آه تأخر محمود عساه خيراً.

يخرجُ حسان من غرفته..

_ صباح الخير أمي.

_ أهلاً يا بني صباح النور.

_ ماذا بك يا أمي..؟ هل نسيتي أن اليوم عطلة، ويحق لي النوم قليلاً بعد.

تجيبهُ أمهُ بنبرة حنان ..

_ أيها الكسول عليك الذهاب إلى الحقل لابد أن والدك جائع وعليك أن توصل إليه الفطور.

_ حسناً لا تغضبي سأغسل وجهي بينما تحضرين الزوادة.

تدخل أم محمود المطبخ وتبدأ بتحضير الزوادة.

ها هو هدير السيارة يأتي من بعيد، قد وصل محمود من المدينة، حاملاً في جعبته شوقٌ جائعٌ لحضن الأهل، ورائحة الخريف الدافئ في القرية.

محمود.. شابٌ يافع، بهي الطلة، حسن الوجه، طويل القامة عريض المنكبين، تبدو عليه ملامح الشاب الريفي الخشن.

يدرس في كلية الحقوق ن مجتهد في دراستهِ وقد جاء ليمضي عطلته قبل بدأ الامتحان النصفي، لأنه سيغيب حوالي الشهرين ونصف بينما ينهي امتحانه ثم يعود إلى القرية في العطلة الربيعية.

في ذلك الوقت لم يكن هناك الكثير من السير في القرى، بل كانت تأتي الحافلة في الصباح حاملةً القادمون من المدينة،

وترحل عند غياب الشمس عائدة إلى المدينة، وكان هناك حافلةٌ أخرى تقل المغادرين من القرية إلى المدينة عند الصباح وتعود في المساء ولم يكن هناك سوى هاتين الوسيلتين للنقل، وكانت في ذلك الوقت حين تصل الحافلة كل أهل القرية يسمعون صوتها فمن كان له أحدٌ خارج القرية يخرج ليستقبله.

حين سمعت أم محمود صوت السيارة قادمة تنهدت وقالت الحمدُ لله قد جاء الغالي.

وركضت متلهفة لملاقاة ابنها البكر فتحت الباب بسرعة وحين اقترب احضنته وقالت له:

_ أهلاً بني قد اشتقنا إليك كثيراً.

_ أهلاً أمي.. وأنت كيف حالك لقد اشتقت إليكم كثيراً.

_ لماذا لم تأتي الجمعة الماضية قد قلقنا عليك كثيراً..

_ آسف أمي، لكن تعرفين لم يبقَ الكثير للامتحانات، ويجب عليَّ التحضير جيداً، فلا أريد الرسوب في أي مادة..كي لا تؤخرني في السنة القادمة.

_ إني أدعو لله أن يوفقك في كل خطوة. ادخل بني عشر دقائق ويكون الفطور جاهزاً.

_حسناً أمي.. ولكن أين والدي؟

_إنه في الحقل.. وحسان ذاهبٌ إليه ومعه الفطور وسيخبره أنك أتيت ليعود بسرعة.

_لا دعيني أنا أذهبُ إليه وآخذ الفطور له.

_ألن تأكل معنا هنا؟

_لا أنا مشتاقٌ لوالدي لذا سنأكل سوياً.

وبينما هما يتحدثان يطرقُ الباب وسلمى تنادي على عليا..

سلمى ابنة السادسة عشر، وصديقة عليا المقربة، وابنة الجيران الذي عاشوا مع عائلة أبو محمود في السراء والضراء، وقضوا أيامهم سوياً في الحزن والفرح، وفي كل المناسبات كانوا جنباً إلى جنب، وكأنهم عائلة واحدة، وقد تعلمت الغناء من أم محمود فكانت تغني مع محمود في الاحتفالات التي يقيمها الشبان في القرية.

لديهم بنتان وشاب واحد. من بينهم سلمى التي تعتبر آخر العنقود والمدللة عند والديها..

بيضاء البشرة، واسعةُ العيون، شعرها أقرب إلى لون الكستناء، وجهها مستدير، جسدها مرسوم كحوريةٌ أنزلها اللهُ بأجمل خلق.

ذهب محمود ليفتح الباب بخطاه الواسعة الواثقة، التي توحي للرائي بأنه رجلٌ بمعنى الكلمة.

فتح الباب... فوقف صامتاً لبرهة، يتأمل ما خلق الله من هبة الجمال الأخاذ، الذي يكادُ يُنطق الصخر.

قالت سلمى..

_مرحباً محمود الحمدُ لله على سلامتك.

_أهلاً سلمى.

وما زال ينظرُ إليها بعيونٍ تبرق مذهولٌ بها.

قاطعت أمهُ شروده..

_من على الباب يا محمود؟

ينتبه محمود لنفسه وشروده.

_أهلاً سلمى تفضلي بالدخول، إنها سلمى يا أمي.

مرت سلمى من أمامه وكأنه يراها للمرة الأولى، كان ما يزالُ ممسكاً بالباب، نظر إليها كما لم ينظر من قبل، لم يشعر

بأنها كبرت من قبل، لكنه اليوم يراها بطريقةٍ جديدة، وتلكَ الضفيرة الملتفة فوق رأسها تجعلها أميرةٌ ولا كلِّ الأميرات.

تسأله سلمى وهي ترى كيف ينظر إليها..

_أين عليا؟

فجاوبها بتلكؤٍ متوتر، لا يعرف لملمة الحروف، أو رصف الكلمات.

_.. لا أعرف.. فقد وصلتُ لتوي.. أدخلي لا بد أنها في غرفتها.

تسمع عليا الأصوات الآتية من غرفة الجلوس، فتقول في نفسها كأنهُ صوت محمود، وتخرج بسرعة تصرخ:

_ محمود أخي كم أنا مشتاقةٌ لك.

تصرخُ عليا من فرحها، وتنسى وجود، سلمى تركض إليه، تعانقه بشدة، تعاتبه لطول غيابه عن البيت، فقد اشتاقت إليهِ طبعاً، فهو الوحيد الذي يلبي طلباتها، والحنون عليها أكثر من حسان الذي لا يكفُّ عن الشجار معها.

تنتبه عليا لوجود سلمى..

_آه.. أنا آسفة يا سلمى، لم أنتبه لوجودك تعرفين كم أنا مشتاقة لمحمود.

_لا بأس عليكِ يا عليا، تجاوبها سلمى.

تأتي أم محمود حاملةً طعام الفطور بيديها، تنادي محمود:

_محمود خذ يا بني هذا الفطور، وانتظر أخاك حسان فهو ذاهبُ معك، ولا تتأخر، أخبر والدك أن أختك نهلة وزوجها قادمان اليوم أيضاً.

_حقاً! لقد اشتقت لها كثيراً ولابنتها الشقية فلم أرهم منذ الصيف.

_كانت تأتي في أيام الأسبوع وأنت في الجامعة لكنها ستأتي اليوم لتراك.

_ يدخل حسان.. آه مرحباً أخي كيف حالك؟

يجيبه محمود:

_أهلاً أخي المشاكس كيف حال دراستك؟ لا تنسَ أنك في الثانوية العامة وتحتاج لكل ساعة في الدراسة.

_لا تقلق فأنت تعرفني.

تعانق عليا محمود، وتتدلل عليه، وتبدأ تشتكي حسان إلى محمود.

_ إن حسان يا أخي دائماً يأخذ أغراضي ولعبي، ومؤخراً كسر لعبتي المفضلة وصار يضحك عليَّ.

تقول لها أمها:

_دعي أخاك يا صغيرة، قد وصل لتوه ومتعب من السفر ألم تكبري على هذه الأشياء بعد.

ينظر محمود إلى حسان نظرة قاسية بعض الشيء، ويكلمه بنبرة فيها بعض الغضب الذي يخفي الابتسامة..

_ألم أقل لك يا حسان أن تترك أختك وشأنها كي لا أغضب منك.

يبدل حسان الموضوع..

_ألا تريد الذهاب للحقل فأبي ينتظر.

يضحك محمود ضحكة خفيفة، ويقول له:

_حسناً، إنك تعرف كيف تخرج نفسك من المأزق.

همَّ محمود وحسان بالخروج إلى الحقل، ليأخذا الفطور إلى والدهما.

_قال محمود وداعاً أمي أنا ذاهب هل أخبر والدي بشيء.

_لا بني أذهب ولا تتأخر وأخبر والدك أن أختك سوف تأتي اليوم على الغداء وصهرك قادم أيضاً فهو يريد أن يراك لذا لا تواعد أحداً من أصدقاءك.

_حسناً أمي أراكم على الغداء.

خرج محمود وحسان من البيت ذاهبين إلى الحقل، وصارا يمشيان في أزقة القرية الضيقة، كان محمود يلقي السلام على الذين يراهم في الطريق، وهم بدورهم يرحبون به وبعودته من المدينة ويسألونه عن دراسته.

حين وصل إلى أطراف القرية، حيث أصبحت الأرض كلها غارقة في اللون البني والأصفر الخريفيين، ومنظر الأوراق المتساقطة على الأرض يشبه لوحة مرسومة بإتقان، واندماج الألوان الإلهية بتدريجات، يختلطُ لون التراب بمساحاتٍ طوليةٍ وعرضيةٍ، تأخذُ الإحساس، وتكتبُ الكلماتَ الغزلية في جمالٍ رباني، أشبه بروح الحياة فلا يوجد للملل مكان.

-٣-

بيت أبو محمود جميل وبسيط في الوقت ذاته، واسعٌ تحيطُ به حديقةٌ كبيرة، وهم ميسوري الحال يملكون، أرضاً كبيرة في آخر القرية، وعدة قطع أخرى من الأراضي الصغيرة موزعة في القرية والقرية المجاورة.

يعتمدون على المواسم الزراعية في تدبير حياتهم المعيشية، ويهتمون بتدريس أولادهم الشباب، أما البنات فلم يكن لهن دورٌ في العلم لأن الفتاة كانت تتعلم أعمال المنزل فقط.

يحيطُ بالبيت حديقةٌ من جميع النواحي وهو يتوسطها، فيها الكثير من الورود، الريحان والزنبق والجوري وغيرها الكثير من جميع الألوان والأشكال..

وكانت الحديقة من اهتمام أم محمود، فهي التي تعتني فيها دائماً حتى أنها تزرع فيها بعض الخضار مثل النعناع والبقدونس والخس والبصل، وفي الوسط توجد بعض

الأشجار المثمرة، أما في المحيط الخارجي للحديقة، تشكل أشجار السرو والدفلة سوراً جميلاً.

حين تنظر إلى هذا البيت الريفي البسيط، بطريقة رسمه، تجد فيه من الجمال ما يعيد الروح إلى الجسد، والدفء إلى القلب، بالحب المغمور بأهل البيت، واللهفة الموجودة بينهم.

تطلُّ الحديقة الأمامية على بيت أبو أمين، والد سلمى، وهو رجلٌ حاد الطبع، وقر، ذو ابتسامة جميلة، حاله المادية جيدة جداً، فقد كان موظفاً في البلدية، وله احترامه بين أهالي القرية.

أما زوجته أم أمين.. امرأةٌ لا تفارق الابتسامة وجهها، صاحبة نكتةٍ لطيفة، جلساتها تزيل الهم عن القلب.

على الطريق إلى الحقل راح حسان يسأل محمود عن المدينة وأهل المدينة وكيف هي حياتهم؟

أما محمود فقد كان شارد الذهن، يفكر كيف هكذا مرت الأيام، وكانت دائماً أمامه، ولم يرها أو ينتبه إلى هذا الجمال الكامل، إلى لمسة يداها الدافئة، وعيونها البريئة، وهذا الخجل على وجهها، وما الذي حدث.. لماذا صارت نبضاتُ قلبه تدقُ

بهذه السرعة حين رآها وكأن قلبه صار يرقص لها، وهو الذي كان يقضي الكثير من الأوقات معها.

أسئلةٌ كثيرة تراوده، ويحاول البحث عن أجوبةٍ لها..؟ إحساسٌ غريبٌ، يجعلهُ يبتسم في كل لحظةٍ دون شعور، وكأن الدرب أضاء لهُ الشموع، وصار كل شيءٍ جميل، حتى تلك الأشواك على جانبي الطريق، صارت تعني له الجمال، والأوراق المتساقطة كأنها ورودٌ تُنثر فوق البساط الأحمر، تأخذه إلى النعيم، وهل يغير الإنسان قدرهُ بالحب فقط؟

وصل حسان ومحمود إلى الحقل، وسلم محمود على والده، ثم اتجهوا نحو خيمةٍ في وسط الحقل مصنوعة من القش ليرتاحوا ويأكلون الطعام.

قال أبو محمود:

_كيف حال دراستك يا بني.

_الحمدُ لله يا أبي، إني أحاول جاهداً، وإنشاء الله لن أتأخر سنتين بعد وأتخرج.

_ إني أتمنى أن أراك رجل قانون ناجح، وموفق في عملك.

_أتعلم شيئاً يا أبي.

_ماذا؟

_لقد صادفني رجل في الحافلة، وحين عرف أني ابنك عرفك، وحدثني عن بطولات قدمتها الكتيبة التي كنت أنت فيها في حرب الإنقاذ.

_و من هو؟

_آه لقد نسيت أن أسأله، أخذنا الحديث ولم أعرف اسمه، لكنه من القرية التي قبلنا.

_كيف هو شكله.

_لم أنتبه كثيراً لكنه ملون العينين، وقصير القامة حتى أني انتبهت أنه يضع صليباً، وقد أثارني أنه محفورٌ عليه أحرف لم أفهمها.

_آه.. لا بد أنه أبو خليل فقد كان هذا الرجل صديقي أيام الشباب.

_قال لي أني أشبهك كثيراً.

سكت محمود قليلاً، ثم قال لوالده:

_أبي لماذا لا تحدثنا عن هذه الحرب وكيف كانت.

_ليس الآن.

_لماذا..؟

_لأن الألم الذي كان في هذه الحرب كبير.

_كما تريد لكن لم تخبرني ماذا تنوي أن تزرع هذه السنة.

أحسَّ محمود أن والده لا يريد الحديث عن الحرب، فلا بد أن هناك شيءٌ لا يريد تذكره لذا قرر تغيير الموضوع...

_سأزرع الخس في الأرض الجنوبية أما هنا سأزرع القمح أما في أرضنا السُفلى سيكون فيها موسم الفول جيداً.

قام محمود وحسان ووالدهم ليكملوا العمل بعد أن انتهيا من الإفطار حتى لا يتأخروا على البيت.

كانت أم محمود تحضر وجبة الغداء حين وصلت ابنتها نهلة وزوجها (علي) وبدأ الجميع العمل سوياً.

عاد محمود وأبيه وحسان إلى البيت، وعندما رأته نهلة ركضت نحوه وحضنته بقوة وقالت:

_كم أنا مشتاقةٌ لك يا أخي هذه المرة أطلت الغيبة علينا.

_وأنا أيضاً لكنك لا تأتين إلا في أيام الثلاثاء وأنا لا أكون هنا إلا يومي الخميس والجمعة.

_ألم تشتاق لأختك أم أن هناك ما يشغل بالك؟

_وماذا سيشغل بالي؟!

_لا أدري لكن قد يكون هناك فتاةٌ في الكلية أو ما شابه تمنعك من القدوم إلينا.

_ماذا تقولين تعرفين أني لا أحب هذه الأشياء.

عندها صار محمود ينظر إلى سلمى، ليرى ردة فعلها، و ما قد تقوله، في هذه الأثناء شعرت سلمى أن نظرات محمود إليها ليست كعادتها، فقد كانت عيونه تلمع، وتتحدث بلغة لم تعرف كلماتها، وطريقة سلامهُ عليها ودفءِ يداهُ التي شعرت فيها... كلُ شيءٍ فيهِ لم يكن عادياً بل كان صافياً كشلال ماءٍ عذب، شيءٌ ما صار يتحرك في داخلها، أحاسيسٌ كثيرة اختلطت فيها كما لم تشعر من قبل. عند ذلك أرادت الرحيل، والعودة إلى المنزل، فلم تعد قادرة على ضبط أنفاسها، التي تزدادُ صراخاً كلما نظرت إلى محمود، حتى أنها تساءلت في نفسها عن هذا الشعور الغريب الذي صار يصرخ من داخلها دون توقف، وحين أحست أنه لا سبيل لديها لإسكاته قررت الذهاب للبيت.

_وقفت وقالت لهم : أنا يتوجبُ عليَّ الذهاب إلى المنزل لابد أن أختي وصلت.

_فقالت لها عليا : لماذا أنت مستعجلة ابقي الآن وبعد الغداء تذهبين.

_لا أستطيع فأنا مشتاقةٌ لابن أختي ، فلا بد أنها وصلت الآن ، وأخي جاء من المدينة أيضاً ، كما تعلمون اليوم هو الجمعة ، والجميع يحضر إلى البيت.

_حسناً كما تريدين ، ما رأيك أن نذهب غداً إلى النبع سوياً ونحضر الماء.

_لا بأس سأمر بك في الصباح وداعاً.

ودعها الجميع وبعدها قاموا إلى طاولة الغداء ، التي عليها من الطعام ما لذ وطاب ، والأحاديثُ تتبادل بين الجميع ، والضحكاتُ تخرج من القلب فرحةً بهذا الاجتماع.

فقال زوج نهلة :

_والله يا خالتي أم محمود لم أذق أطيب من طبخك.

فقالت له :

_ألف عافية بني كل قدر ما شئت.

جاوبه محمود بتعليقٍ ساخر بعض الشيء.

_ماذا تعني ألم يعد يعجبك الطعام الذي تعده أختي لك.

نظرت نهلة إلى زوجها نظرة عتاب:

_هكذا إذاً تشتكي لأمي عن طبخي حسناً لن أطبخ شيئاً بعد اليوم.

_أجابها زوجها: ليس هذا ما قصدت إنما الطعام الذي تعده والدتك لا يقاوم.

صار الجميع يطلق تعليقاته ويضحكون، كأن الهموم باجتماع الأحبة تزول.

وحين حل المساء، رحلت نهلة وزوجها، وكان محمود قد قرر البقاء ليوم السبت لتمضية وقتٍ أطول مع العائلة.

انفردت أم محمود بابنها البكر بعد أن ذهب الجميعُ إلى النوم.

_آهٍ يا بني بقي لديك سنةٌ واحدة وتتخرج عليك أن تبحث عن الفتاة التي تتزوج بها.

_فقال محمود: لا أمي ما يزال الوقت مبكراً فأنا الآن أفكر بدراستي فقط ولا شيء آخر.

تنهدت أم محمود بعمق :

_حسناً كما تريد كيف هي دراستك.

_الحمدُ لله يا أمي بقي عندي السنةُ القادمة وبعدها أبدأُ بالتدريب لأصبح محامياً وأبقى بجانبك دائماً.

_إني أدعوا لله أن يوفقك دائماً والآن أخلد للنوم وغداً لدينا طول النهار لنتحدث تصبح على خير بني.

مضى اليوم بما فيه من جديد وجميل ، وتعب السفر والعمل والطريق.

في صباح اليوم التالي ، استيقظت سلمى باكراً ، ساعدت أمها على أعمال المنزل ، وبعد أن انتهت قالت سلمى :

_أمي أريد الذهاب لكي أرى عليا فقد وعدتها بالذهاب معاً إلى النبع لإحضار الماء.

_اذهبي وابقي هناك فأنا سأذهب لأرحب بقدوم محمود.

ذهبت سلمى ووقفت عند الباب تريد أن تطرقه ، لكنها تذكرت ما حصل معها ، ونظرات محمود إليها ، مما جعلها تتردد قليلاً.

دقت سلمى الباب.. لكنها ارتبكت حين فتح محمود فرجعت خطوةً إلى الوراء، ثم قالت له:

_ مرحباً محمود كيف حالك اليوم.

أجابها وهو يمدُ يدهُ لمصافحتها، والابتسامة على وجههِ وكأنه وجد ما كان يبحثُ عنه.

_ أهلاً سلمى أنا بخير كيف حالك.

و لم ينتبه أنهُ ما زال ممسكاً بيدها، وصار يمعن النظر فيها، وكأنه لا يريد أن يفلت يدها خوفاً من شيءٍ يجهلهُ.

شعرت سلمى بدفءِ يده، وتلك النظراتُ المليئة بالحنان والأمان، فسحبت يدها على مهل، وسألته عن عليا.

_فقال لها إنها في المطبخ تساعد أمي تفضلي بالدخول.

نادى محمود على عليا.

أتت عليا لاستقبال سلمى ودخلا سوياً إلى غرفة الجلوس.

سألت سلمى:

_ماذا يا عليا ألم نتفق أن نذهب اليوم إلى النبع.

_فقالت عليا نعم قد نسيت سأحضر بعض الأشياء وأخبر محمود عله يذهب معنا ما رأيك.

ارتبكت سلمى قليلاً ثم رفعت كتفيها قائلة:

_لا مشكلة عندي.

كان محمود في المطبخ، واقفاً بجانب والدته، شارد الذهن، فسألته أمه:

_ما الذي يشغل بالك.

_لا شيء مهم أمي، لكن أنا مستغربٌ كيف تغيرت سلمى وأصبحت جميلةٌ جداً.

_أيها الماكر هل أعجبتك؟

_أمي أرجوكِ أنت تعرفين أني لا أفكر بهذه الطريقة لكني تفاجأت بعض الشيء.

_إن البنات يكبرن بسرعة يا محمود وهذا شيءٌ طبيعي.

تدخل عليهما عليا تقطع حديثهما:

_من هنَّ الذين يكبرون؟

تجيبها أمها:

_ لا شيء ما بك مستعجلة.

_نريد الذهاب أنا وسلمى إلى النبع.. محمود ما رأيك بالذهاب معنا فاليوم الجميع يجتمع هناك كما تعرف.

_حسناً أيتها الصغيرة حضري الأغراض التي نحتاجها ونذهب.

فرحت عليا، وذهبت لتخبر سلمى أن محمود قادمٌ معهم، حينها ارتبكت سلمى أكثر، وصارت تغلي من داخلها، ولا تدري إن كان هو الفرح بمجيء محمود، أم الخوف من وجوده بجانبها.

خرج محمود وسلمى وعليا معاً، وأخذوا الجرار معهم لجلب الماء من العين، فهذا تقليد يحبه أهالي القرية، وخاصةً الشباب والفتيات لأنهم يلتقون ويمرحون سوياً حيث أنهم اعتادوا على إقامة الحفلات هناك.

في الطريق إلى النبع، كانت عليا تكلم سلمى، لكنها كلما كلمتها تجدها شاردة، فسألتها:

_ما بك يا سلمى اليوم لست على عادتك؟

_فالتفتت سلمى بسرعة إلى عليا وماذا لا شيء.

_لا أعرف أنا أكلمك وأنت في مكانٍ آخر.

_لا أنا تفاجأت بمحمود فقط وخجلت منه.

_حقاً كيف هذا وأنت دائماً معنا ما الجديد في الأمر.

_ما من جديد هيا لنذهب الآن.

وصلوا إلى النبع، وهناك ذهب محمود ليسلم على أصدقائه، بينما ذهبت عليا وسلمى لملئ الجرار الفارغة بالماء.

كانت سلمى تتلفت كثيراً كلما غاب محمود عن نظرها، تحاول البحث عنه بين الشباب، حتى أن عليا انتبهت لحركاتها، فسألتها: _ ما بك يا سلمى تتلفتين تارة وتتنهدين تارةً أخرى كمن أضاع طفله في الزحام.. ؟

شعرت سلمى بالخجل حينها، وعندما كانت تسرق بعض النظرات إلى محمود تجده ينظر إليها أيضاً، دون أن يلحظهُ أحد من شباب القرية، وكان الارتباك يعتريهما كلما تلاقت عيونهم، كأنهما غريبان عن بعضهما، ولأول مرةٍ يلتقيان.

لم تعرف سلمى بماذا تجيب عليا فقالت لها:

_ما بالك أسئلتك كثيرة اليوم، ألا تعرفين كم أحب هذا المكان ودائماً عندما آتي هنا أتلفت حولي، أنت التي غريبة الأطوار اليوم دعينا نذهب إلى البيت وعدت أمي ألا أتأخر.

شعرت عليا بأن سلمى غضبت منها، ولأول مرة تتكلم معها بهذه اللهجة فقالت لها:

_أنا آسفة يا سلمى لم أتوقع أنني أزعجك إلى هذا الحد لكنني من دافع الفضول فقط وأنت تعرفين صحبتنا دائماً نحكي لبعضنا كل شيءٍ فماذا الآن ماذا تغير في الموضوع؟

فكرت سلمى قليلاً، وعرفت أنه ما كان عليها الرد بهذه الطريقة الحمقاء بوجه عليا، ولكنها ماذا تفعل لا تريدها أن تشعر بما يجول في خاطرها، فقالت لها:

_أرجوك يا عليا سامحيني فأنا متوترة اليوم لا أعرف ماذا أصابني لذا دعينا نذهب إلى البيت.

_أجابتها عليا لا تقلقي دعيني أنادي محمود.

نادت عليا على محمود، وأخبرته أن عليهم العودة إلى البيت فقال مستغرباً:

_لما العجلة لقد أخبرت الشباب أننا سنبقى ولذا بدؤوا بالتحضير سيشعلون النار ونشكل حلقة غناء.

فقالت سلمى:

_آسفة يا محمود، لكن أمي أخبرتني بأن لا أتأخر لأنه لدينا عملٌ كثير في البيت ولا أريدها أن تغضب مني إذا أردت البقاء أنت وعليا لا بأس أعود وحدي.

_لن أدعك تعودين وحدك أتينا سوياً ونعود سوياً.

_لا أريد أن تترك أصدقاؤك لأجلي.

_لا تقلقي أراهم فيما بعد لكن دعيني أخبرهم أننا ذاهبون. ذهب محمود، وأخبر الشباب أنهم لن يبقوا، حاول أصدقائه منعهم من الذهاب لكنه اعتذر منهم.

جاء محمود، وأخذ الجِرار عنهنَّ، وراحوا يضحكون طول الطريق حتى وصلوا بيت سلمى، فناولها محمود الجرة وقال لها:

_أنا مسافرٌ غداً يا سلمى هل تريدين شيئاً من المدينة.

حين التقت عيناها بعينيه، وكأنه أراد أن يقول لها شيئاً آخر ولكنه أخفاه في حنجرته ودفنه في جوفه، ويداه ترتجفان، مع أنها دافئة جداً، وكل شيءٍ فيه كما لم يكن يوماً، حتى عيناهُ كانت تفضحهُ، والكلام يريد الخروج أما الخوف فكان يمنعه.

في هذه اللحظة القصيرة، صار قلبها يخفق بسرعة، والدم يجري في عروقها بقوة، حتى احمرت وجنتاها، ولم تعرف كيف تجيبه فقالت له:

_لا أريد شيئاً هل ستكون غيبتك طويلة هذه المرة أيضاً.

_قال محمود لا سأحاول أن آتي قريباً.

ودعت عليا سلمى وقالت لها سأراك غداً.

وصـــل محمـــود وعليـــا إلى البيـــت، فوجـــدا والـــديهما بانتظارهما، فجلسا معهم، يتسامرون ويتحدثون عما جرى في غياب محمود، وهو يخبرهم عن المدينة حتى جاءهم النعاس لينهي سهرتهم وذهب الجميع إلى النوم.

كانت سلمى تتقلبُ على فراشها، وقد جافاها النوم، ولا سبيل إليهِ، وبدأت رحلة المعارك مع الوسادة والهذيان، وأفكارٌ لا تبارح المكان، أسئلةٌ كثيرة دون جواب، لماذا الآن وفي هذا الوقت بالذات..؟ جاء أشعل في جسدي النار، وعند الصباح سيرحل ويتركني وحيدة، شاردةً في نظراتٍ لا أدري مقصدها... آهٍ لو أنه قال أي كلمة ليطمأن قلبي.

راحت سلمى تتقلبُ على السرير، وكلما أغمضت عيناها لتنام يوقظها التفكير من جديد، فتبتسم وتفرح من أعماقها، إلى أن غفت، وعند الصباح.. استيقظت على صوت هدير الحافلة. قامت بسرعة نحو النافذة، فرأت محمود يودع والديه وإخوته، إنه عائدٌ إلى المدينة، كانت عيونهُ تتلفت بشكلٍ غير

مباشر نحو بيت أبو أمين، آملاً أن يرى سلمى قبل الرحيل، ولم يعرف أنها تراقبه من غرفتها فصعد الحافلة ورحل.

أما هي بقيت تنتظر ميعاد الرجوع، قد يكون هناك بعض الكلمات التي يجب أن تقال ولشيء ما تأخرت. لكن لا بأس الموعد القادم سيكون هناك مزيد من الكلام.

-٤-

وصل محمود إلى البيت الذي يسكنه في المدينة، وكان يقطن فيه مع صديقيه، إبراهيم الذي لا تبعد قريته عن قرية محمود سوى القليل، أما سمير فبيته في قرية بعيدة جداً عن محمود، وقد جمعتهم المحبة والألفة، حتى أنهم كانوا يشكون همومهم لبعضهم أكثر مما يقولونها لأهلهم أو أصدقائهم في القرية، وكانوا كلما عاد أحدهم يركضون إليه ليروا ماذا أحضر لهم من الطعام والحلويات، وخاصةً سمير الذي كان يفتقد لهذه الأشياء، لأن أمه متوفاة وزوجة أبيه لا تعامله جيداً، ووالده قاسٍ عليه، وما كان يذهب لبيته إلا لأجل أخته التي كانت تحن عليه وتعطيه ما يريد، وكانت تعطف عليه فيشعر نحوها وكأنها أمه الحنونة الدافئة.

أما إبراهيم ابن مختار الضيعة، محبوبٌ من أصدقائه ودود، وكان مثابراً على الدراسة خوفاً من أبيه الذي إذا عرف أنه قصر ولو قليلاً سيحرمه من المصروف، ويعيده إلى العمل

في الأرض، فكان يخشاه ولا يخالف له أمر مهما كان، فهو أبٌ قاسٍ متسلط.

سلم محمود على أصدقائه، وجلسوا يتحدثون عما جرى في غيابه ويسألوه عن أخبار الأهل والقرية، فقال لهم إبراهيم:

_أيها الشباب، علينا الآن أن نستعد جيداً، فالامتحان اقترب لم يعد هناك ذهابٌ إلى القرية حتى ننهي الامتحان، وبعدها نذهبُ سوياً علينا أن نستغل أيام العطل بالدراسة ما رأيكم.

لم يعترض محمود أو سمير على ذلك، لأن هذه السنة صعبة وتحتاج الكثير من الدراسة والجهد.

دخل محمود غرفتهِ وبدأ بترتيب أغراضهِ حين دخل إبراهيم إليه مستغرباً حالة محمود فسأله:

_هل من شيءٍ يا محمود؟

_فأجابه محمود شيء مثل ماذا؟

_لا أدري أراك على غير عادتك تعودنا عليك عندما تعود من المنزل تكون ضحكاتك كثيرة عالية لحد أن الجيران يسمعونها والنكات لا تفارق ثغرك.

_لا شيء يا إبراهيم أنت تعرف الدراسة هي بذاتها همٌ كبير والامتحانات اقتربت.

_هل أنت متأكد أن هذا كل ما في الأمر ألا يوجدُ شيءٌ آخر.

_ لا أطمئن لا شيء.

تمرُّ الساعاتُ طويلةٌ مملة، فما أصعب الانتظار، وما أقسى الثواني في الغربةِ، تغتال قوة الصبر ببرودٍ، يتسللُ عبر النوافذ، يحضن الجسد من كل اتجاه، يبعثرُ الأفكار بين الجمال الخارج من جوف الجسد وذاك الغطاء الكبير يغطي الروح مثل الكفن، وما العمل..؟ لقد غزا الحب الفؤاد، وانهمر كالمطر.. سيول شوقٍ تغني للحبيب أين أنا..؟ من هذا الذي يسمع صوت ندائي، وخفقات قلبي، وما هذا السر في الحب، يأتي إلينا دون ميعاد أو خبر، لا يطرق الأبواب، كأنهُ طيفٌ لا نراهُ إلا ساعة هو يريد يفرض علينا شروطه ونقبلها بكل رضاً.

لم يستطع محمود النوم وهو يفكر ويفكر... يا ترى هل هي تشعر بما في داخلي؟ أم أنها معتادةٌ على وجودي دائماً كما أنا... في العطلة القادمة سأذهب إلى القرية وأتأكد من مشاعرها ونظراتها إليَّ.. آهٍ يا ويلي ما هذا إني أخشى أن أكلمها أو أقول لها أي كلمة فتغضب ثم يواسي حاله.. لا بأس حين أذهب سأعرف شيئاً، لابد أن أعرف.

-٥-

في الصباح دخل إبراهيم إلى غرفة محمود فوجدهُ نائماً على الأريكة أيقظه:

_محمود.. صباح الخير لماذا أنت نائمٌ هكذا هيا استيقظ علينا الذهاب إلى الكلية.

_ أخ.. صباح النور كم الساعة الآن؟

_إنها التاسعة والنصف ليس لدينا وقت كثير هيا انهض بسرعة.

_لقد تأخرت البارحة في السهر لم أستطع النوم.

_إن سمير قد جهز الفطور عنك واليوم هو دورك لكنه تركك لأنك متعب من السفر لذا عليك تحضير الفطور ليومين متتاليين.

خرج محمود وإبراهيم وسمير إلى الكلية، وحين وصلوا هناك اعتذر منهم سمير وتركهم ليذهب إلى مقصف الكلية.

استغرب محمود فسأل إبراهيم:

_إلى أين ذهب؟

_هناك تطوراتٌ كثيرة جرت يوم السبت لأنك كنت في القرية.

_وماذا هناك؟

_أتذكر الفتاة التي رآها سمير يوم الاثنين الماضي في الحديقة الداخلية.

_لا تقل أنه كلمها.

_أجل هذا الذي حصل رآها في المقصف وكلمها واعترف لها بحبه وكانت هي أيضاً تنتظر منه كلمة.

_لم تكن عليه هذه الجرأة واضحة من أين أتى بها.

_هذا الحب يا صديقي كما تعرف إنه من السنة الماضية يحاول البحث عن الفرصة المناسبة ليكلمها وأخيراً وجدها.

وبعد عناء النهار، وتعب المحاضرات، وحلول المساء عاد الشباب إلى البيت ليرتاحوا ويدرسوا ما عليهم.

أما ما كان يجري في القرية فهو شيءٌ جميل، فها هي سلمى تفكر بما يدور في خاطر محمود، إنها تحلم به وكل يوم تنظر من النافذة إلى بيت أبو محمود علَّ الحبيب يأتي اليوم فتراه

وتسلم عليه وتسمع منه ما تريد، لكنه لم يأتي اليوم، فتقول في نفسها ربما غداً سأنتظر.

كلما كانت تفكر به، تشعر بأنها تطير فوق السحاب، تراقص الطيور في السماء فاردةً ذراعيها، لا أجمل من الشعور بالحب وقرب الحبيب والضياع في أحضانه دون رقيب، إحساس يشبه بتفاصيله القدسية الأبدية، حيث يصبح كل ما حولنا جميل، والسهرُ لا يجتاحه الملل، والقمر أجمل من ذي قبل، والتنهدات تخرج من قفص الصدر محطمةً القضبان الحديدية، هاربةً من السجن المؤبد، حيث كتب على جدرانهُ لا للحب سوى يوم الزفاف.

-٦-

تمر الساعات طويلةٌ أكثر مع اقتراب يوم العطلة ، ومحمود ينتظر يوم الخميس بفارغ الصبر، ها هو يتنقل في أنحاء البيت ضجراً غاضباً كبركان لا يهدأ ، يتخبط ويتشاجر مع نفسه لأي سبب ، انتبه سمير وإبراهيم لغرابة تصرفاته.

قال سمير لإبراهيم :

_لماذا محمود على غير طبيعته منذ أن عاد من القرية وهو دائم الشرود عير متوازن هل من شيء في قريته أزعجه.

_لا أعرف سألته هذا السؤال لكنه قال ما من شيء في القرية.

_دعنا نسأله قد يكون منزعجٌ من أحدنا.

_لا أظن ذلك لو أنه هناك ما يزعجه لكان قالهُ لي.

_إذاً لماذا لا يجلس معنا لا في الكلية ولا في المنزل؟

_سأحاول معرفة شيءٍ منه اليوم.

دخل إبراهيم غرفة محمود ليتحدث معه عما يجري وما الذي يجعله يجلسُ وحيداً طوال الوقت.

_هيه.. ماذا به صديقي كثير الشرود ومنعزلاً دائماً هل هو الحب.

_لا تسخر مني أرجوك همومي تكفيني.

_هذا هو إذاً.

_من؟

_الحب ومن غيره يفعل بك ذلك كما حصل مع سمير كانت حالته مثلك تماماً إلى أن حصل على ما يريد.

_كفاك سخرية دعني أكمل دراستي.

_لن أتحرك من هنا إلى أن تخبرني من هي؟

_هي.. من هي؟!

_الفتاة التي أخذت تفكيرك هذا.

_لا يوجد أي فتاة إنما الدراسة فقط.

_كما تريد لكنني سأعرف قريباً.

خرج إبراهيم من غرفة محمود، ولم يعرف ما به، فأخبر سمير بما جرى بينه وبين محمود وحاولا الوصول إلى حل ولم يفلحا ولكن تصرفات محمود وأجوبته تشير إلى قلبه.

اليوم هو الخميس، والساعة هي السابعة والنصف صباحاً، حين أيقظ محمود إبراهيم وسمير ليودعهم قبل ذهابه إلى القرية.

نظر سمير إلى محمود وسأله:

_ماذا؟ إلى أين أنت ذاهب!

_إلى القرية.

_وماذا يوجد في القرية؟

_وماذا يوجد هنا؟

_محمود ما الذي جرى لك! ألم نتفق على عدم الذهاب إلى البيت حتى ننهي الامتحان.

_بلى لكني اشتقت لأهلي وإخوتي ثم إني أخذت كتبي معي سأدرس هناك.

دخل إبراهيم عليهم بعد أن سمع محمود يتحدث عن القرية فقال:

_ما الذي أسمعه هل هو صحيح؟

قال له سمير:

_اسمع ما يقول.. إنه ذاهب إلى القرية.

فقال محمود:

_ وكأنني أول مرة أذهب ما بالكم؟

قال إبراهيم:

_لابـد أن ظـني في مكانـه وهـذا مـا يجعلـك تـذهب بهـذا الشكل.

قال محمود:

_أنا ذاهب وداعاً يا شباب.

خرج محمود بعد أن ودع أصدقائه، وتوجه نحو القرية يريد الوصول بأسرع وقت ليرى سلمى.

-٧-

كانت أم محمود جالسة على الكرسي تحيك الصوف أمام نار المدفأة لحسان، وعليا تحضر الشاي حين قرع الباب.

_فقالت أم محمود من أتى إلينا اليوم؟

_قالت عليا لا بد أنها سلمى يا أمي سأفتح أنا الباب.

_محمود أخي ما الذي أتى بك اليوم ألم تقل أنك لن تأتي حتى تنتهي من الامتحانات.

_هل أعود ما رأيك.

_ليس هذا ما قصدت لكنك فاجأتني.

_مرحباً أمي كيف حالك؟

_أهلاً بني لم تغب كثيراً هذه المرة.

_ما بال الجميع ألا تريدون مجيئي حسناً سأعود.

_أدخل كفاك دلالاً.

_أين حسان وأبي؟

_حسان مازال في المدرسة ووالدك في الحقل.

_محمود أرجوك يا بني إن أخاك لا يهتم كثيراً لدروسه إنه يسمع منك كلمه كفاه لهواً.

_سأكلمه لا تقلقي وأنت يا عليا أراك وحيدة اليوم أين سلمى؟

_إنها في البيت أختها جاءت اليوم لعندهم وستنام الليلة هنا لأن زوجها مسافرٌ غداً.

_وكيف هي حالها هل هي بخير؟

_لماذا تسأل هل هناك من سبب؟

انتبه محمود أنه أينما ذهب الجميع يسأله عن الذي يجري، وهو لا يريد أن يعلم أحد عن سلمى في الوقت الحاضر على الأقل.

وضع محمود أغراضه في غرفته وخرج إلى الحديقة، ثم بدأ بري الورود وعيونه على بيت أبو أمين، فلا بد أن تخرج سلمى ويراها ويشفي شوقه الذي لم يعد يطيق الانتظار.. نظرةٌ إلى الباب ونظرةٌ إلى النافذة.

عليا تتساءل لماذا يسألني محمود عن سلمى وهذه الابتسامة المخفية على عيناه فاقتربت نحو أمها:

_أمي هل حدثك محمود شيئاً ما عن سلمى؟

_لا لماذا تسألين؟

_أشعر أنه معجبٌ بها هل تحدثت معه بهذا الخصوص أي إذا كان يفكر بإحداهن.

_سألته وقال لي لا هم عنده الآن سوى دراسته.

كانت سلمى مشغولة جداً، حتى أنها مرت أمام النافذة عدة مرات ولم تنتبه لوجود محمود في حديقة منزلهِ، وهو كلما مرت يرتبك وتصبح دقات قلبه سريعة ويشعر بضغط الدم يصل إلى رأسه.

خرجت أم محمود إليه تناديه ليشرب الشاي معهم، فوجدته يسقي الورود، وهو الذي لم يكن يهتم بالحديقة أبداً، فشعرت أن هناك ما يضيق على صدره، فتركته وعادت إلى الداخل، وقالت لعليا عما رأته من أخاها إذا كانت تعرف شيئاً تخبرها به ، وعليا لم تكن تعرف شيء فاتفقتا على أن تحاول عليا معرفة ما حاله.

خرجت عليا إلى الحديقة وأخذت معها كوبين من الشاي.

_محمود خذ هذا من يدي.

_شكراً عليا أدخلي فالجو باردٌ هنا.

_وما الذي تفعله أنت هنا.

_ألا ترين أسقي الورود فهي عطشى.

_لم تكن قبلاً مهتماً بأمر الورود ما الجديد؟!

_ماذا تعنين؟

_أعني لابد هناك ما يشغل تفكير أخي الكبير.

_مثل ماذا؟

أومأت برأسها ناحية بيت أبو أمين وكأنها تقول له سلمى، ثم قالت:

_مثل سلمى.

_أيتها البلهاء أنا لا أفكر حالياً سوى بدراستي وأنا أعتبرها مثلك تماماً إنها ابنة جيراننا وأهلها أصدقاء عائلتنا منذ زمن لذا لا تكرري هذا الموضوع على لسانك ثانيةً هل فهمت؟

قال كلماته بغضبٍ شديد، ورمى خرطوم الماء وأراد دخول البيت حين نادت عليا على سلمى تسلم عليها، فرجع إلى الوراء بهدوء شعر بقدميه لا تحملانه والابتسامة طغت على الغضب الماثل في وجهه ونثرت الورود من حوله.

قال محمود في نفسه:

سلمى.. هبة الجمال من الخالق العظيم، هي الغيثُ لعطش العاشق بعد طول الغياب، أناملُ صوتها الدافئة تدغدغُ شرايين جسدي، وسهام عينيها تصطاد قلبي المحكم الأغلال، هي فراشة الربيع، وشغف الأمطار، وثمرة الصيف وكل شيءٍ في هذا الوجود.

عاد محمود لجانب عليا ليسلم على سلمى، وكانت عيونه مليئةً بالشوق الذي يفضح نظراته، أحست سلمى بعيناه تخبراها عن الحب الذي سجن في قلبه، والخجل اعتراهما سوياً والتلكؤ في لفظ الحروف، جعل الكلماتُ مبعثرةً خجولةً، لا مكان لترسو فيه.

جميلٌ أن تحب والأجمل أنك تعرف أن من تحبه وصل لحدٍ أصبح فيه عاشقٌ أو أكثر من ذلك، وليس بالقليل إذا قلت أصبح متصوفاً بحبكَ.

حان وقت الغداء وعاد أبو محمود من الحقل، وحسان من المدرسة، واجتمعت العائلة تتسامر وتتكلم عن أحوال الجميع، سأل محمود أباه:

_أبي قلت لي في المرة الماضية أنك ستحدثني عما جرى معكم في الحرب لكنك لم تقل لي شيء وأنا أريد معرفة أسباب هزيمتنا فكلام ذلك الرجل قد أثار فضولي.

_كيف أحدثك عن شيءٍ لم يرضَ عنه أحد.

_لم تقل لنا أي حدث عن تلك المعارك التي خضتموها في فلسطين وكيف انهزم الجيش العربي بعد أن وصل إلى رمي العدو في البحر.

_يا بني قد خدعنا الغرب والعالم كله كان ضدنا حتى القيادات العربية نفسها لم تكن بهذا الإخلاص للقضية مات الكثيرون من الشباب الأبطال الذين لو كتبت قصصهم بالإبر على آماق البصر لكانوا عبرةً في البطولةِ لمن اعتبر، من رجالٍ وقفوا بوجه الدبابات ورجالٍ نفذت ذخيرتهم فقاتلوا بأيديهم اجتمع رجالٌ من جميع الدول العربية، من العراق والأردن ولبنان ومصر والجزائر والمغرب والسودان، في هذه الحرب لا تفقد بلداً عربياً وكانوا من جميع الطوائف والأديان.

_كل هذا وهزمنا.

_هذا هو الحال يا بني هذه هي الخيانة بذاتها.

كان الحديث يسير باتجاه تلك الحرب، وبعد الغداء ذهب محمود إلى غرفته ليبدأ الدراسة ونادى على حسان ليدرس معه، كان حسان يريد الذهاب إلى أصدقائه عند النبع ولكن محمود منعه وأجبره على البقاء في المنزل ليدرسا سوياً.

حل المساء وكان محمود لايزال يدرس في غرفته مع أخيه حسان الذي كان كثير التذمر لأن محمود منعه من الذهاب إلى النبع.

وصل أهلُ أبو أمين ليسلموا على محمود، وحين سمع محمود صوت أبو أمين وزوجته قام لساعته وبدل ملابسه ليستقبلهم وكل ظنه أن سلمى معهم.

خرج محمود من غرفته ليستقبل الضيوف، ولكن الصدمة كانت أن سلمى ليست معهم، فخاب ظنه وبهت وجههُ، وجلس الجميع يتبادلون أطراف الحديث.

اقترب محمود من عليا وقال لها:

_مسكينةٌ أختي الصغيرة ستمضي السهرة معنا وحدها.

كانت غاية محمود السؤال عن سلمى دون أن يلفت الانتباه إليه.

فسألت عليا بعفوية دون معرفة ما يريد محمود.

_خالتي أم أمين أين سلمى؟

_إنها في البيت مع أختها.

_ألن تأتي؟

_لا ستبقى مع سعاد فزوجها سافر اليوم في مهمة وهي أرادت البقاء عندنا الليلة.

_أخبريها أن لا تتأخر في الصباح فعلينا الذهاب باكراً إلى دروس الخياطة.

_لا تقلقي سأخبرها.

تمتم محمود في نفسه غاضباً، يا لهذا الحظ العاثر هل سآتي وأذهب دون رؤيتها ماذا أفعل الآن..؟

قطع أبو أمين على محمود شروده وسألهُ:

_كيف دراستك يا محمود؟

_الحمدُ لله إنها جيدة جداً وأنا أحضرُ الآن للامتحان النصفي.

_أعرف أنك شابٌ مجتهد وسترفع رأس أباك عالياً في القرية فقلةٌ هم الشباب المتعلمون عندنا.

ـ إن شاء الله يا عماه سأكون عند حسن الظن.

انتهت السهرة، وغادرت عائلة أبو أمين أما عائلة أبو محمود أكملت السهر لبعض الوقت ثم ذهب كلٍ منهم إلى فراشه.

أما محمود فكان عليه الإنجاز في دروسه، لذا بقي صاحياً ليدرس حتى ساعةٍ متأخرة، كان يفكر كثيراً بسلمى، وهو خائفٌ أن لا يراها فيكون مجيئه إلى القرية باء بالفشل وهذا ما لا يريده، بعد قليل سمع صوت الرعد في الخارج فها هي الغيوم تجتمع وتعتصر إنها ليلة ماطرة.

وقف ناحية النافذة ينظر إلى الحديقة، والرياح تحرك أغصان الأشجار العارية، وقطرة إثر قطرة تتساقط وتغمر ألواح الشجر كعاشق يحضن الحبيبة، جاءها مشتاقاً حاضناً لها رافضاً إعتاقها، فتح محمود النافذة ليشعر بلذة البرد حين يخترق أحاسيس الجسد، وقطرات الماء المنهمرة فوق يده تشعره بطعم الحياة الجميلة.

أشرق صباح اليوم التالي، وبدأ الضجيج يعم في القرية، وكلٍ ذهب إلى عمله، أما محمود مازال نائماً وأمه لم توقظه

لأنها رأت غرفته مضاءة حتى وقت متأخر فعرفت أنه كان يدرس لذا لم تحب أن تزعجه باكراً لينام جيداً.

جاءت سلمى إلى بيت أبو محمود، لتذهب مع عليا إلى دروس الخياطة، كانت أم محمود جالسة في المطبخ تنتف ديكاً وتعده للغداء.

_مرحباً خالتي أم محمود.

_أهلاً سلمى كيف حالك اليوم..

_جيدة الحمدُ لله ولكن أين عليا لا أراها.

_قالت أن تنتظريها ريثما تأتي قد ذهبت إلى الدكان لإحضار بعض الأغراض لقد أتيت في وقتك أريد منك أن توقظي محمود إنه في غرفته.

ارتبكت عليا في البداية من هذا الطلب، وكأنها أول مرة توقظ محمود وهي دائماً كانت توقظه عندما يكون نائماً لكن هذه المرة مختلفة تماماً.

دخلت سلمى إلى البيت حتى وصلت باب غرفة محمود، طرقت عليهِ طرقاتٍ خفيفة لا يسمعها نائم بسبب توترها، ثم أعادت الكرة ولكنه لم يستجيب ففتحت الباب، رأته غارقاً في

النوم حاضناً الوسادة بذراعيه وقدمه اليسرى بارزة من تحت الغطاء نادته بصوت حنون لكنه لم يحرك ساكناً، وقفت لحظةً تتأمل هذا الشاب الذي هو اليوم مسيطرٌ على قلبها، ثم التفتت ناحية الطاولة التي يدرس عليها والأوراق المتناثرة فوقها، فأخذت قلماً واقتربت منه، مررته بحنيةٍ فائقة فوق قدمهِ، فاختلجت من الدغدغة وانقلب على ظهره دون أن يصحو من نومه، ثم أعادت الكرة ولكنها ضغطت القلم على قدمه أكثر، فسحب قدمه بسرعة واستفاق ليجد سلمى أمامه مباشرة، البارحة كان يتأمل أن يراها ولو من بعيد واليوم هي توقظه.

_صباح الخير إن والدتك قالت أن أوقظك آسفة إذا أزعجتك.

_يا صباح النور والورد والياسمين.

خجلت سلمى من كلمات محمود فقالت له:

_ماذا بك نائم وكأنك في بئرٍ عميق طرقت الباب عدة مرات وندهت عليك لكنك لم تسمعني حتى دغدغتك بالقلم.

_حقاً.. لقد تأخرت في السهر البارحة.

_هيا تحرك أمك تنتظر في المطبخ.

_دعك من أمي الآن دعيني أشبع عيوني بصباحك الجميل

احمر وجه سلمى فخرجت من الغرفة مسرعة، وجلست بجانب أم محمود.

_هل أيقظت محمود يا سلمى؟

كانت سلمى شاردة الذهن بما قاله محمود، ودقاتُ قلبها تكادُ تفضحها، نادتها أم محمود مرتين ولم تنتبه لها.

_سلمى.. سلمى.

_آه.. عفواً خالتي هل كلمتني.

_ أين شردت يا ابنتي أكلمك ولا تجيبين هل استيقظ محمود.

_نعم.. وها هو قادم.

دخل محمود المطبخ وصبح عليهما:

_صباح الخير أمي يا ليت صباحي دائماً مشرقاً جميلاً مثل اليوم.

شعرت سلمى بالخجل الشديد وأرادت الذهاب إلى المنزل بينما تأتي عليا لكن محمود منعها.

_أيقظتني وتريدين الذهاب دعينا نشرب القهوة سوياً بينما تأتي عليا.

جلست سلمى لشرب القهوة، كانت العيون تحاكي بعضها بكلمات صامتة، أشبه بالنسيم حين يحاكي أوراق الشجر، وكأنهما يفهمان ما يقولان دون حاجةٍ للكلمات المتملقة.

انتهت إجازة محمود، وحان وقت العودة إلى المدينة ليترك قلبه يشتاق لهذا اليوم الجميل.

-٨-

تمرُ الأيام، والامتحانات بدأت، والأشواقُ بين العاشقين الصامتين تزدادُ عنفاً، وكلٍ في مكانه يسأل عن حال الآخر وماذا يفعل، كلما جاء يوم الخميس تقف عليا وراء النافذة تنتظر قدوم محمود، وهو بدوره كان يراها دائماً معه، في كتبه وغرفته وكل شيءٍ، حتى أنه إذا رأى اثنان يتمشيان يذكرها، وكلما رأى صديقه سمير مع حبيبته يتنهد شوقاً للحظة عودته إلى المنزل ليقابلها.

و في يوم ماطر، جلست سلمى عند النافذة تتأمل بيت أبو محمود، والأمطار تنكب على النافذة قارعةً الزجاج، بترانيمٍ أشبه بالموسيقى الرومانسية الأداء، تدخل القلب، تثير فيه جهنم الاشتياق.

مضى الشتاء القارص، وحل الربيع بجماله المغرور، كطاووسٍ فارداً ذيله بألوانه الرائعة، وأزهر الشجر ولبست الأرضُ ثوبها الأخضر المزركش بألوان الأزهار المختلفة،

وعطورها التي لا تحصى، وسر العاشقين لم يفضح، والكلمات مازالت سجينة الحنجرة، وكل ينتظر الآخر لينطقها، والإشارات بينهما بالعيون تتغزل.

أراد محمود من هذه العطلة أن تكون فرصته ليخبر سلمى بحبه في أية فرصة تكون مؤاتية.

كانت تلك الأيام مليئة بالصمت الذي خيم على المكان في كل آن، ولم يكن لدى محمود أو سلمى أي متسع من الجرأة التي أبت الخروج.

لم يتبقَ سوى أسبوع واحد لانتهاء العطلة الربيعية والعودة إلى المدينة، فجلس محمود يخط كلماته على ورقة بيضاء، اقتطعها من إحدى دفاتره، وفكر في أنه لو أعطاها هذه الرسالة سيكون ذلك أسهل له من الاعتراف لها مباشرة فبذلك يضمن عدم إحراجها.

وحين بدأ كتابة الرسالة كان يكتب ويقرأ بصوت يُسمع فكتب فيها:

سلمى...

أشعر أحياناً أنني أسير عينيك، أجلس خلف قضبان رموشك، أراقب الطيور في السماء، أحسدها على الحرية التي تعيشها وكيف هي لا تخجل وتعترف بحبها منذ البداية، فلا تحتاج إلى مقدمات أو رسائل.

أنت.. ملكة أحلامي، وأنا أكتب إليك بهذه الرسالة لألقي بما عندي من كلمات بصوت ثار على حنجرته المستبدة، وضرب الخجل بالصراخ ليسمعه جميع المارون من النساء والرجال وطيور تحلق فوق الجبال.. أني أحبك.

هل تسمحين لي أن أناديك حبيبتي... ؟

سلمى...

عشقي لك ليس فنجان قهوة، أو كأس نبيذ عند آخر المحطة، لا تصنعه لذة السرير عند الرعشة.

عشقي تخطى مبادئ الرجال، وخرج عن قواعد الشعراء، جعلته يمضي إليك دون رقيبٍ... دون هدىً.

كسفينة دون شراع، تقطع البحار وتبحث عن ميناء قلبك.

أعطيت هذا الحب الجنون مسكناً، والعقل ليس له في العشق مكان.

أنا لست تاجراً بقلوب النساء.

ولست جزاراً كالسياسيين، أذبح الحروف فوق الجريدة.

كوني أنت العطف والحنان.

كوني الحلم الجميل، والقدر الأخير.

إني أحبك...

أنهى محمود كتابة الرسالة، وطواها ثم خبأها في أحد أدراج خزانته كي لا يراها أحد.

كان ذلك الربيع مليء بالمطر، فالشتاء لم يتوقف، والأيام التي قضاها محمود في تلك العطلة لم يكن فيها احتفال عند النبع، ولم يجتمع كثيراً مع سلمى إلا حين تأتي لزيارة عليا، وطوال الوقت يجلسان سوياً، وهو يبقى يراقبها من بعيد وينظر إليها بعينيه دون أن يفصح بكلمة أو تلميح.

-٩-

مضت عطلته وبقيت الرسالة سجينة الدرج، حزينةً تبكي سوء المصير، عاد محمود إلى المدينة ومازال يفكر في الرسالة، والصيف القادم قد يكون أفضل، فالعطلة فيه طويلة وقد تكون فرصته فيه أكبر.

طوال فصل الدراسة أبقى محمود سره قيد الكتمان، ولم يخبر به أحد، حتى صديقيه إبراهيم وسمير مهما حاولا معرفة سبب شروده وصمته الكثير فكان يقول أنه مشغول التفكير بالحقل والموسم، أو يقول بأنه خائف من الامتحان.

أما سلمى.. كانت تنتظر قدوم محمود، وتقول في نفسها لعله في هذه المرة يقول شيئاً، كانت تحاول أن تعطيه إشارة، ولكنها تخاف وتتردد، وتخشى أن يكون حبها من طرفٍ واحد.

حل الصيف بثماره، وبدلت الأشجار ثوبها الأبيض لترتدي الوشاح الأخضر المزركش بالثمار الملونة.

انتهت السنة الدراسية، وعاد الطلاب إلى أهاليهم، وأصبحت القرية تغلي بالناس، فالجميع يعمل في الحقول والنساء والفتيات في البيوت والأولاد يملئون شوارع القرية بالألعاب، والضيوف القادمين من المدينة ليبتعدوا عن الجدران الأسمنتية ويتنفسوا الهواء النقي في الريف.

ترفع محمود إلى السنة الرابعة، وأخاه نجح في الشهادة الثانوية، وهو ما لم يكن يتوقعه أحد، وبعلاماتٍ ممتازة أدخلته فرع جيد يجعلهُ مدرساً في المستقبل، وبعد أن اطمئن محمود لمواده، عاد إلى القرية لتمضية العطلة الصيفية بين أهله وبقرب الحبيبة.

وصل محمود إلى البيت فلم يجد فيه أحد، فوضع أغراضه في غرفته وذهب ليسأل عنهم في بيت جيرانهم أبو أمين، وهي حجة ليسلم على سلمى ويراها بعد هذه المدة الطويلة التي غابها عن القرية.

ذهب محمود وطرق الباب، ففتحت له أم أمين:

_أهلاً بني الحمدُ لله على سلامتك أدخل.

_شكراً لكني جئت أسأل إن كان أحدُ أهلي عندكم؟

_ليس عندنا أحد لقد ذهب الجميع إلى الحقل أدخل لترتاح من عناء الطريق سيصلون بعد قليل وقد تختلف معهم بالطريق.

_ أخشى أن أسبب لكم الإزعاج.

_ما هذا الكلام أنت بمثابة أمين أدخل هيا.

دخل محمود بعد إلحاحٍ شديد، وهو ما يتمناه أن يرى سلمى عند وصوله ليطفئ بعضاً من شوقه لها.

نادت أم أمين على سلمى لتأتي.

_سلمى.. تعالي وانظري من جاء لزيارتنا من المدينة.

_من يا أمي أخي؟

_لا إنه محمود جارنا أعدي شراب التوت وتعالي لتسلمي عليه.

كان لوقع اسم محمود في أذنيها نغمةٌ جميلة، أحيت في داخلها الشعور بلذة الحياة، فقامت بسرعة نحو الباب تنظرُ إليه نظرات مشتاقة، لو نظرت بها إلى الحجر لذاب كشمعةٍ في وسط النار.

وقف محمود، وكانت الفرحة على وجههُ لا توصف، كأن الروح ارتدت إلى جسده، شعر أنه يريد ضمها إلى صدره، وتقبيل يديها وخديها، وحملها والهربُ بها بعيداً عن عيون الناس إلى جنةٍ كلها عشق.

اقترب محمود، وصافحها بحرارة فشعر بيديها ترتجفان والخجل سرق من فمها الكلمات.

قطعت أم أمين شرودهما وطلبت من سلمى إحضار الشراب.

_هيا سلمى أحضري الشراب لمحمود وتعالي لنحضر له الغداء لا بد أنك جائع أليس كذلك بني.

_حاضر أمي.

_لا أريد أن أتعبكما يا خالتي لست جائعاً.

_و لو أهذا كلامٌ تقوله إننا أهلك.

دخلت أم أمين وسلمى إلى المطبخ لتحضير الطعام، لكن أم أمين انتبهت لاهتمام سلمى وسرعتها وترتيبها بمد المائدة، والفرحة الواضحة على وجهها التي لم تستطع إخفائها.

جلس الثلاثة على المائدة وأكلوا مما قسمه الله لهم، كانت لغة العيون حاضرةً على المائدة، ترسل الرسائل المعاتبة لطول الغياب وقصر الكلام، ومن ثم بدأت أم أمين تسأل محمود عن أخباره ودراسته وإن كان قد التقى بأمين في المدينة وتبادلوا الأخبار، والقصص التي كانت تجري في القرية إلى أن عاد والديه من الحقل وذهب معهم.

أمضى محمود عطلة الصيف مع أهله، وكلما التقى بسلمى يتبادلان النظرات دون أي كلمة، فكانوا يقولون كل ما يريدونه بالعيون، حتى حين كانوا يجتمعون في السهرات التي يقيمها شباب القرية في الساحة أو عند النبع.

في أحد الأيام جاء صديقه إبراهيم لزيارته، وكانت سلمى عند عليا، فلما رآها سأل محمود:

_من هذه الفتاة الجميلة.

_لا تتكلم عنها أرجوك.

انتبه إبراهيم لكيفية نظرات محمود إلى سلمى، وغيرته الكبيرة عليها من كلماته.

_إذاً هذه هي التي شغلت بالك طوال السنة ولم تخبرني عنها.

_نعم يا إبراهيم إنها هي.

_هل أخبرتها أنك تحبها.

_لا.

_ماذا تنتظر فتاةٌ مثلها كثيرٌ من الشباب يركضون خلفها فهي جميلة جداً لا تستهتر بهذا.

_أخشى أن أخبرها فلا أراها من جديد.

_كلمها وأرح أعصابك ولا تكن جباناً.

_ماذا أقول لها أتريدني أن أقول لها أحبك وماذا إن رفضت؟

_وترفض.. ما الخطأ في ذلك على الأقل تعرف أنها لا تريدك ثم لماذا ترفض ... وما الذي ينقصك؟

_أخشى أنها لا تفكر بي هكذا وأنا لا أريد أن أسبب لها الإحراج وأنت تعرف صحبتها مع أختي.

_ أتريد نصيحة؟

_ ماذا؟

ـ إن الذي يحب لا يستسلم وإن رفضت حاول معها ثانيةً وحين تراك متمسكاً بها لن ترفض.

ـ يا صديقي أنت لديك علاقاتٌ كثيرة في الجامعة، تترك أي فتاةٍ دون معرفتها لذلك هذا سهلٌ عليك أما أنا أحبها وهذا ما لم تختبره يوماً فهو ليس كعلاقاتك يومان وتنتهي.

ظل إبراهيم يحاول إقناع محمود ويعلمه كيف يخبرها بحبه، واتفقا على أن يحاول في أول فرصة.

أراد محمود إخبار عليا بما يشعر ناحية سلمى، لكنه يتردد دائماً ويقول في نفسه أخبرها فيما بعد.

-١٠-

مضى الصيف ولم يحرك محمود ساكناً، أو يقول كلمةٍ واحدة وحتى لم يعطها الرسالة التي سهر طوال الليل في الربيع يكتبها.

بدأ العام الدراسي، إنها السنة الأخيرة ويتخرج الأصدقاء الثلاثة محمود وإبراهيم وسمير.

كان سمير قد تقدم لخطبة سعاد، واتفقا على أن يكون حفل الزفاف مع حفل تخرجه لتكون الفرحة فرحتين.

اجتمع الأصدقاء من جديد في بيت المدينة، واستقبلوا بعضهم بالترحاب والشوق الذي دائماً ساخنٌ بينهم، وقضوا ذلك اليوم يتحدثون عما فعلوه في العطلة، وكيف قضوها، حتى ساعةٍ متأخرة.

اعتذر منهم سمير وذهب للنوم، بقي محمود وإبراهيم لوحدهما فقال إبراهيم:

_هيا يا محمود دعنا نذهب للنوم علينا الاستيقاظُ باكراً.

_اذهب أنت أنا لا أريد النوم الآن.

_هيا أخبرني الآن ماذا يجري في القرية هل أخبرتها؟

_لا لم أقل شيء.

_ما هذه التصرفات تريد إقناعي أن الصيف مضى ولم تسنح لك فرصةٌ لإخبارها.

_آه.. يا صديقي يا ليتها مجرد تصرفات لو تعلم بما هو حالي لكنت عذرتني سيأتي يوماً تعشق فيه وتعرف معنى السهر ولذة العذاب والاحتراقُ شوقاً.

_كل هذا وما الذي يمنعكما من الارتباط؟

_لا .. افهمني يا إبراهيم هذه الفتاة كبرت أمام عيني مع أختي الصغيرة ولم أفكر يوماً أنني سأحبها.

_أفهمك لكن يجب أن تكلمها قد لا تكون تفكر بك مثل ما تظن قد تعتبرك ابن جيرانها فقط.

_لا ..لا أظن ذلك إنها تفهمني من نظراتي إليها وحدثتني عيناها كم تحبني نعم إني أرى هذا الحب الذي تكنه في قلبها لي فنظراتها ليست عادية وارتباكها الدائم أمامي ليس دون سبب.

_ يا رجل تعلق كل هذه الآمال على مجرد نظرات هذا لا يكفي عليك مصارحتها لا تكفي العيون يا صديقي كما أنه ألم تسنح لك الفرصة بعد.

_بلى لكن... لا أعرف أخشى أن أتسبب بالحرج لها كما أني لو أردت أكلمها متى أشاء.. أتعرف وبصراحةٍ أكثر أنا مرتبكٌ جداً.

_أتمنى لك الخير يا صديقي لكن عليك الإسراع قبل أن يأتي أحدٌ ويأخذها منك.

_لا تقل ذلك كف الله شر كلامك في الزيارة القادمة سأكلم والدتي بالموضوع وأنتهي.

كان محمود كثير التفكير بما قالهُ إبراهيم، وخشي أن يتقدم أحدٌ لخطبة سلمى، وبدأ يغلي من داخلهُ كبركانٍ محتارٌ بين التأجيلِ إلى حين تخرجه أو مفاتحة أهله بموضوع الخطوبة، وانتظر يوم العطلة الذي طال جداً هذه المرة.

ذهب محمود إلى البيت وفاتح أمه أنه يريد سلمى ابنةُ أبو أمين لتخبر بدورها والده ويخطبها له فهو لا يتجرأ القول لوالده هذا الكلام بسبب خجله.

وعندما كانت أمه تعد الشاي في المطبخ دخل محمود وقال لها:

_أمي أريد أن أتكلم معك قليلاً.

_ماذا تريد قل؟

_ليس هنا أوصلي الشاي لأبي واتبعيني إلى غرفتي.

_حسناً بني لا بد أن لكلامك أهمية كبيرة فاللهفة على وجهك واضحة.

أعطت أم محمود الشاي لزوجها وقالت له:

_ أنا في غرفة محمود إن احتجت لشيء.

فقال لها:

_وماذا يوجد في غرفة محمود؟

_لا أدري فقد قال أنه يريد أن يكلمني بشيءٍ هام سأذهب لأراه.

صعدت أم محمود إلى غرفة محمود لترى ما يشغل باله.

_ها أنا بني ماذا تريد مني؟

_ أمي سألتني مرةً إذا كان من أحد في فكري أتذكرين؟

_أجـل بـني أخـبرتني أنـك لا تفكـر بهـذا إلى أن تنهـي دراستك أليس كذلك.

_ إني أفكر بذلك الآن ما رأيك؟

_حبيبي إن هذه أكبر فرحةٍ عندي ولكن أخبرني من هي التي شغلت بالك هكذا؟

_إنك تعرفينها جيداً يا أمي... إنها سلمى.

_أيها الشقي لاحظتُ اهتمامك بها.

_أريدك أن تخبري والدي وتطلبينها لي.

_تريث بينما أخبر والدك ونهيئ للموضوع بينما تنهي دراستك.

_أبقي هذا الموضوع سراً بيننا ولمحي بذلك لأم أمين وبسرعة.

_مستعجلٌ أيضاً.. على مهل بني.

_أخافُ أن تضيع مني أمي ، فالفتاةُ جميلة وأنا معلق بها لا تخيبي أملي.

_لا بني.. الله لا يخيب لك أمل سأفاتح والدك بالموضوع في الوقت المناسب ونرى ماذا سنفعل.

وفي اليوم التالي ودع محمود أهلهُ وعاد إلى المدينة، وكلم صديقيه بما جرى معه، فرح الأصدقاء بما سمعوه من أخبارٍ جميلة.

الأيامُ الجميلة تمضي على مهل، وأيام الدراسة صارت مملة بالنسبة له، وكان سمير وإبراهيم يرثون لحاله وشروده، فتارةً يواسونهُ وتارةً يبدؤون بالتعليقِ عليه.

مضى ثلاثة أيام على وجود محمود في المدينة، فشعر أنها ثلاثةُ شهور، فبينما كان سمير جالسٌ مع خطيبته سعاد في الكلية رأت أن محمود غير متوازن فسألت سمير:

_ماذا به محمود لماذا هو ذابلٌ هكذا؟

_إنه يحب ابنة جيرانهم وهو مشغول البال عليها وخائفٌ أن يتقدم إليها أحدٌ قبله.

_ألم يفاتحها بالموضوع بعد؟

_لا.. أتصدقين يحبها من السنة الماضية وكل هذا الحب في داخلهِ ولم يقل أي كلمةٍ واحدة.

_يا لهُ من مسكين وماذا سيفعل؟

_لقد فاتح أهلهُ بالموضوع الجمعة الماضية وقالوا له أن ينتظر إلى الربيع.

كان محمود كثير الحيرة من الوضع الذي هو فيه، ولم يصدق قدوم العطلة حتى يذهب إلى القرية، ويُعجل بالتقدم لخطوبة سلمى.

وصل محمود إلى القرية وسأل أمهُ عما جرى، وإن كانت قد فاتحت أم أمين، فأخبرته أنها لم تحرك ساكناً بعد، غضب غضباً شديداً وبدأ يتذمر.

قرر محمود البقاء في القرية ريثما يتم الموضوع، وبقي يلج على والدته لتقنع والده الذهاب بنفس الليلة إلى بيت أبو أمين وإنهاء الموضوع.

_أمي أرجوك كلمي والدي واذهبوا اليوم.

_لا بني دعني أخبره اليوم ثم نقرر متى نذهب اهتم أنت بدروسك وتخرُّجك الآن.

_إن هذا الأمر عندي أهم من دراستي وتخرجي لذا يجب أن يتم اليوم.

_إنني أتمنى يا بني فأين سنجد لك فتاةٌ بمثل أخلاق سلمى وترتيبها وابنة بيتٍ محترم انتظر قدوم والدك وسأكلمه.

فرح محمود لكلام والدته، لكن قلبه ظل مقبوضاً طوال النهار، فلم يهدأ وخائفٌ جداً ولا يعرف السبب، وكأن شيءٌ ما سيحصل أو مصيبةٌ ستقع.

عاد والد محمود من الحقل، فاتحته أم محمود بالموضوع وأخبرته عن حال محمود منذ وصوله وكيف كان يلج عليها طوال النهار.

_تعرف يا عزيزي لقد كلمني محمود في زيارته الماضية أنه يريد سلمى ابنةُ جيراننا ما رأيك؟

_نعم الاختيار فالولدان ابنانا.

_حسناً ما رأيك أن نفاتحهم بالموضوع اليوم وننتهي.

حاول أبو محمود تأجيل الموضوع إلى اليوم التالي، لكن زوجته رفضت ذلك وأخبرته أن على محمود العودة إلى المدينة غداً ويجب إنهاء الموضوع بنفس اليوم.

وافق أبو محمود واستعد الأهـل للـذهاب إلى بيـت أبـو أمـين لبـدء تقاليـد الخطوبـة، حتـى أنهـم لم يخـبروا عليـا أو حـسان بذلك.

كان بيـت أبـو أمـين كـثير الـضيوف في هـذا الأسـبوع بـشكلٍ ملحوظ فقالت أم محمود لابنتها عليا:

_انتهى الصيف وبدأ موسم الخريف ومازال بيـت أبـو أمـين يعج بالضيوف أكثر من الـصيف يـا لهـذا الرجـل كـم لديـه مـن المعارف والأصدقاء ولا ينتهـي مـن ضـيف حتـى يحـلُ في ديـارهِ ضيفٌ آخر.

_أنت تعرفين يا أمـي أن جميـع إخوتـه مـسافرين مـنهم مـن في المدينـة وآخـرون مـسافرون بعيـداً ولا يـأتون إلا في الـصيف حتى أن سلمى لم أرها طـوال هـذا الأسـبوع لانـشغالهم ببيـت عمها من المدينة.

_و هل أخبرتك لما أتوا؟

_ما هذا الـسؤال يـا أمـي كيـف أسـألها لمـاذا لم يرحـل بيـت عمك؟

_لا شيء ابنتي لكني استغربت فهذه أول مرة يطول مكوثهم.

عنـد المـساء ذهـب أبـو محمـود وزوجتـه لزيـارة جيرانهـم، فوجدوا عندهم ضيوف من المدينة، كان أخاه أبـو عـادل وهـو الأخ الأصغر لأبو أمين، وهو ذو رتبة عالية في الدولة مقيمٌ في العاصـمة لطبيعـةِ عملـه، وأبنائـه مميـزين بعلمهـم وأخلاقهـم وحسن التربية، وكان معه ابنه البكر عادل الذي تخرج من كلية الشرطة برتبة ضابط، وهو شـابٌ وقـور طويـل القامـة عـريض المنكبين وكان جاه والده يدعمه في كل خطوةٍ يقوم بها.

جلس الجميع يتحدثون كلٍ عن عمله، وما يهمه من تفاصيل وأكثر الأسئلة المتعلقة بأمور الدولة كانت موجهة إلى أبـو عـادل، فهو طبعاً من رجالات الدولة البارزين ولديه كل الأخبار.

لم تكن أم محمود مرتاحةً لما يجري، خاصـة بعـد أن انتبهـت لنظرات عادل إلى سلمى، لم تكن عادية أو كنظرة شابٍ لابنـة عمه فانقبض قلبها بشدة.

انتهـت الـسهرة، وغـادر أبـو محمـود وزوجتـه، و لم يجـدوا أن الوقـت مناسـب لطـرح الموضـوع بهـذه الجلبـة الموجـودة في بيـت أبـو أمين، فقرروا تأجيل الموضوع ليومين آخرين بينما تخف هذه الضجة.

كانت أم محمود خائفة جداً وقلقة من أن يكون أبو عادل جاء ليطلب يد سلمى لابنه عادل، فهذا الاجتماع غريب، الكل موجود أمين وابنتهم وزوجها لا بد من شيءٍ غيرُ طبيعي، وإن كان ما تفكر به صحيحاً فإنها مصيبة وسينكسر قلب محمود.

أخبرت أبو محمود عن مخاوفها فاتفقا أن يذهبا بعد يومين ويطلبان سلمى رسمياً لمحمود.

في البيت كان محمود ينتظر والديه بفارغ الصبر، وعند وصولهم انفرد بأمه وسألها عما جرى معهم فأخبرته أن بيت أبو أمين لديهم ضيوفٌ كثيرون، ولم يكن مناسباً فتح الموضوع معهم، وأنهم أجلوا ذلك إلى الربيع حتى تفرغ عائلة أبو أمين من الضيوف، وعليه العودة إلى المدينة وإكمال دروسه، فبالربيع سيكون الطقس أفضل للخطوبة، اقتنع محمود بكلام أمه وغادر في الصباح إلى المدينة، على أن يأتي في العطلة لمعرفة الأخبار.

كان محمود في كل عطلة يأتي إلى القرية ليعرف إذا ما أمه فاتحت أم أمين، فتقول له أن بيتهم دائماً يعج بالضيوف ولم تسنح لهم الفرصة بعد.

-١١-

ما زالوا في الشهر العاشر من السنة، والربيع يأتي في الشهر الثالث فكان يتساءل في نفسه هل سينتظر كل هذه المدة، فأصر على أمه أن تنهي الموضوع، وأنه في العطلة القادمة يجب أن يكون كل شيءٍ منتهٍ.

عاد محمود إلى المدينة وكان منشغلاً جداً في دروسه، لكن ذلك لم يمنعه من التفكير الدائم بسلمى، وكان يدعو أن تكون أمه قد أنهت الموضوع مع عائلة أبو أمين.

في ذلك الوقت لم تزر سلمى عليا أبداً، أواعتبرت أم محمود ذلك لانشغالهم بالضيوف، مع خوفها مما قد يحدث، ولم تسأل ابنتها عن سبب عدم زيارة سلمى، لها فقالت لأبو محمود عما تريد من تعجيل في طلب يد سلمى، وأن عليهم الذهاب عند المساء لينتهوا من هذا الأمر وتريح ابنها ليهتم بدروسه، فهي لاحظت انشغال محمود الدائم، وأنه عديم التركيز في دراسته.

وصل أبو محمود وزوجته إلى بيت جيرانهم، عازمين على

طلب يد سلمى لمحمود، فاستقبلوهم كعادتهم بالابتسامة والترحيب الحار، وكان البيت خالٍ من الضيوف، إنها صدفةٌ مناسبة، وحين جلسوا صاروا يتحدثون عن المواسم والقرية والأولاد وبعد أن صار الوقت مناسباً للحديث غمز أبو محمود أم محمود لتفتح الحديث مع أم أمين لترى إن كان ظنها في مكانه حتى لا يحرج أبو أمين بطلب ابنته.

تنحنحت أم محمود لفتح الحديث مع أم أمين:

_ما شاء الله البنات يكبرون بسرعة وها هما سلمى وعليا صارتا على وجه خطوبة لا تشعرين إلا وقد قرع الباب وأتى نصيبهن.

_طبعاً هذا حال الدنيا لذا خطبنا سلمى لابن عمها عادل شابٌ جيد ونصيبٌ ممتاز.

نزل الخبر على أم محمود كالصاعقة، فهذا ما لا تودُ سماعه وكانت خائفة منه.

_حقاً مبروك متى كان هذا ونحن أقرب الناس وآخر من يعلم؟

_صار الأمر بسرعة ومفاجئاً ولم يتسنى لي إخبارك من

كثرة الضيوف في هذه الفترة.

_وماذا عن سلمى هل هي موافقة؟

_البنت صغيرة ولا تعرف صالحها ماذا تريد أفضل من ذلك عزٌ وجاهٌ ومال.

_سلمى تستحقُ ذلك وأكثر، ألف مبروك.

لاحظت أم محمود بروداً في ملامح وجه سلمى، وحزناً يأخذ من عيونها الرقة، لكنها ظنت أنه الخجل ليس إلا، فقامت قبلتها وباركت لها، كم كانت تتمنى لو أنها من نصيب ابنها لكن كل شيءٍ قسمة ونصيب، لا أحد يأخذ ما هو مكتوبٌ لغيره.

انتهت السهرة وعاد أهل محمود إلى البيت مكسورين الخاطر، مرتبكين كيف سيخبرون محمود عند عودته، ثم سلموا أمرهم لله الرحمن الرحيم.

سلمى... وما حال سلمى؟ ومن يدري ما جرى حين علمها بالخبر، نيران أوقدت لهيبها في صدرها، وضاقت بها القرية، راحت تفكر ماذا ستفعل وكيف ستقول لوالدها لا، وإن سمع منها هذه الكلمة قد يعلقها مثل الشاة ويذبحها، ليس لها سوى أختها لتلجأ إليها، فانتظرت قدومها عندهم، لتقول لها أنها

لا تريد هذا الزواج، ولعلها تقنع أبيها بالعدول عن قراره.

و بعد عدة أيام جاءت أختها لزيارتهم، فأمسكتها من يدها وأخذتها إلى غرفتها.

_ماذا بك يا سلمى لما تمسكين بي هكذا؟

_أختي أرجوك ساعديني لا أريد الزواج الآن.

_لماذا وما سبب هذه الدموع كلها؟

_ما من سبب لكن قلبي لم ينفتح لابن عمي.

_أهذا هو السبب فقط صارحيني أخبريني قد أساعدك فأنت تعرفين والدك إذا قال كلمة لا يتراجع عنها أبداً ولمن لعمك أبو عادل.

أخذت سلمى تبكي بشدة، حتى عيناها احمرت، و جفونها ازرقت، وصارت حالتها يرثى لها، شعرت أختها أن هناك شيءٌ عظيم تخفيه سلمى، فحاولت الإلحاح عليها لتقول لها سر هذا البكاء والنحيب، فليس لها عادة أن تخفي أسرارها عنها.

_حبيبتي ألست أختك التي تخفين أسرارك عندها مهما كانت صغيرة أو كبيرة.

_بلى.

_ إذاً أخبريني ما هذا البكاء؟

_هل تريدين معرفة السبب حقاً أنا أحب محمود وهو يحبني أنا متأكدة من ذلك.

أخذت ميساء الموضوع بالتروي محاولة العمل على إقناع أختها بما هو أفضل لها فهي تعرف تأثيرها عليها.

_اسمعيني قليلاً وتوقفي عن البكاء تقولين أنك تحبين محمود وهل هو يحبك؟

_نعم إني أشعر بذلك من نظراته إلي.

_نظراته.. صحيح وهل تكفي النظرات هل قالها لك يوماً أو لمح بهذا.

_لا لكن عيونه تخبرني بكل هذا.

_إن محمود شابٌ جيد وجميلٌ جداً لكنك لا تستطيعين مقارنته بعادل، فالطريق أمامه طويل وعليه إكمال دراسته وتأمين مستقبله، أما عادل فكل شيء جاهزٌ أمامه ويكفيك العز والجاه الذي ستنعمين بهما معه أما بالنسبة لمحمود قد يكون يلاطفك لأنه جارنا وأنت صديقة أخته المقربة ثم أنت على ماذا تستندين إذا لم يقل أو يلمح بشيء لو أنه يحبك كما

تعتقدين كان كلم أخته على الأقل أو لمح بشيء.

كانت سلمى قد بدأت تقتنع بكلام أختها فهو صحيح ولكنه لن يجعلها تكف عن حبها له.

_هيا قفي واذهبي اغسلي وجهك وانزعي هذه الأفكار من رأسك ولا تضيعي هذا النصيب الذي تحسدك عليه كل بنات القرية، الآن دعينا نخرج ونساعد والدتك على تحضير الغداء ولا تتفوهي بأي كلمة أمام أبيك.

_اذهبي أنت سألحق بك.

_لا تتأخري ولا تدعي والديك يشعرون بما تفكرين.

بقيت سلمى طوال النهار مكتئبة وخائفة من أبيها وما قد يفرضه عليها من نصيبٍ لا تريده، حتى أن أمها لاحظت عليها الحزن ولكنها لم تقل أي كلمة.

عند المساء نامت سلمى في السرير وهي تفكر بكلمات أختها، تتذكر بعض المواقف التي جرت مع محمود، وخاصةً ذلك اليوم الذي دخلت وأيقظته من نومه بالقلم، وكيف كانت كلماته رقيقة ونظراته، وغيره من الأشياء الجميلة التي مرت، والأغاني التي كان يغنيها وينظر إليها، كانت كل كلمة

تقول لها أحبك، أيعقل هذا حتى في أغاني الدلعونا كان يقول لها أحبك، فما من سهرة يجتمعون ويبدؤون بالغناء فيها إلا ويقول كلمة أحبك في حروفها وينظر إليها.

صارت تحاكي نفسها محمود ليس هنا، ولن يعرف أني سأتزوج، ولكن كيف أعرف إن كان يحبني، ليس لي سوى سؤال عليا هي الوحيدة التي ستجيبني..

لم تكن عليا على علم بما يجري في بيتهم، أو أن محمود يريد سلمى فهو لم يخبرها بذلك، ووالديها لم يفتحا الموضوع في البيت لأن سلمى قد تقدم إليها ابن عمها ووافقت، وحين سألهم محمود عندما جاء في العطلة قالوا له أنهم أجلوا الموضوع لبعض الوقت ليكون هو قد أنهى امتحاناته، ليكون معهم ويحتفلون بالخطوبة.

في هذه الليلة المريرة لم تنم سلمى جيداً، بقيت مستيقظة حتى ساعةٍ متأخرة وهي تتقلب في السرير وتفكر.

في الصباح استيقظت على صوت عليا تناديها:

_أيتها الكسولة ما زلت نائمة حتى هذه الساعة.

فكرت سلمى كيف ستسأل عليا عن محمود بطريقةٍ غير

مباشـرة، ودون أن تـشعرها بـشيء، وإن كـان محمـود يريـدها لتضرب قرار أهلها بالحائط وتنتهي.

_صباح الخير عليا.

_ما هذا الخبر أصحيح ما سمعت أنك ستتزوجين؟

_نعم وإنشاء الله أراك عروساً عما قريب.

_هكذا إذاً آخر من يعلم أنا وأنا أقرب الناس إليك.

_جرى كل شيء بسرعة ولم أرك لأخبرك رأيت كيف كان الوضع في البيت طوال الشهر نودع ونستقبل.

_هكذا إذاً ستتركينني وحيدة.

_لا عليـك غـداً يـأتي نـصيبك ولـن تبقـي وحيـدة وعنـدما يعود محمود من المدينـة بعـد أن ينهـي امتحاناتـه سـيتقدم لخطبـة إحداهن وعلى هذا الحال تجدين من تمضين الوقت معها.

أرادت سلمى من هذه الكلمة فهم أي شيء إذا كان محمـود أخبرها أو لّمح لها ولو تلميحٌ بسيط.

_أنا لا أعرف متى يأتي نـصيبي، وأخـي محمـود حـين سـألته أمــي قــال أنــه لا يفكــر بــذلك الآن، وهمــه الوحيــد دراســته والتخرج وإلى ذلك الوقت لا نعرف ماذا يحدث، تعالي لأقبلـك

وألف مبروك.

جلست الفتاتان تتحدثان، لكن لم يبدو على سلمى الفرح، إنما طوال الوقت شاردة حزينة، بعكس الفتيات اللواتي يطلبن للزواج، لاحظت عليا ذلك لكنها لا تريد إحراج سلمى.

بعد رحيل عليا دخلت سلمى غرفتها تفكر فيما قالته عليا، وتتساءل إن كان كلامُ عليا صحيح.. فهذا يعني أن محمود لا يحبها كما أخبرتها أختها ميساء، فلو كان يحبها أو يريدها لكان أخبر عليا، ولكن كل تلك النظرات ما هي..؟ أوهامٌ فقط ومحمود لم يأتي هذا الأسبوع لماذا، يا إلهي كل هذا العذاب كم أنا بحاجةٍ لإشارة منك يا محمود، لماذا لم تأتي.

وانكبت على السرير تبكي من القهر الذي أصابها واليأس الذي خيم عليها، فغداً الأحد ووالدها أمهلها لغدٍ لإعطائه الجواب.

الدموع الغزيرة التي تذرف من يوقفها، ومن ذا الذي يستطيع أن يُكذبَ الإحساس.

لم يغمض لها جفن طوال تلك الليلة، وهي تفكر بكلام أختها على ماذا تستند، وخاصةً أن عليا أكدت كلام أختها فهو لا يفكر سوى بدراسته، هذا هو.. حبٌ من طرفٍ واحد كما قالت ميساء.

-١٢-

مرت الأيام ولم يأتي محمود، وأباها لم يسألها عن الجواب، وكانت كل يوم تنتظر قدوم محمود لتعرف رده وماذا سيفعل، ولم تكن على علم بأن محمود كان يأتي ويذهب وأنه طلب من أهله التقدم لخطبتها، ولكن انشغالهم بالضيوف وعدم ذهابها إلى بيت أبو محمود منعها من رؤيته، حتى أنه هو كان متألمٌ جداً لهذا الوضع وكان كلما أتى في العطلة يتذمر لعدم قدرته على رؤيتها.

وبعد مضي حوالي أسبوعان، نادى أبو أمين على ابنته ميساء التي كان قد كلفها بسؤال أختها:

_ميساء.. ماذا أجابتك أختك بيت عمك آتون اليوم لأخذ الجواب.

_توكل على الله يا أبي وافعل ما تراهُ مناسباً سلمى كما تعرفها لا ترفض لك طلبٌ أبداً فهي تعلم معزتك لبيت عمي وبالذات عادل.

_حسناً على خيرة الله إذاً فهي موافقة.

_إن شاء الله أبي.

عندما غادر أبو أمين البيت ركضت سلمى إلى أختها تعاتبها بشدة وتصرخ باكية..

_لماذا فعلت هذا بي يا أختي لماذا لم تطلبي مهلة إلى حين مجيء محمود لأعرف إذا كان يريدني أم لا ألم أخبرك أني لا أريده لما لم تقولي له ذلك أم أنك تريدين موتي قهراً.

_لما المهلة يا أختي فالموضوع منتهٍ بالنسبة لأبيك حتى لو رفضت وهذا السؤال بالنسبة له لا يعني شيئاً فأنا أعرف أبانا أكثر منك.

للأسف محمود لم يأتي، والقرار قد بت فيه، ولم يعد باليد حيلة سلمت سلمى أمرها لله وقالت:

_ ليفعل بي القدر ما يشاء، هذا كان كلامها الأخير.

في هذه الفترة المنقضية وبعد ذهابه إلى المدينة، لم يستطع محمود العودة إلى القرية في العطلة التالية، فقد كان كثير الشرود فاقترح عليه إبراهيم أن يبقى في المدينة ويدرس في أيام العطل، لأنه قد فاته الكثير من المحاضرات ولم يبقى الكثير للامتحان، كما أن هذه السنة صعبةٌ جداً وعليه عدم التهاون، وبعد مرور هذه الفترة لم يعد محمود قادراً على الصبر فهو يريد معرفة ما رد سلمى على خطوبتها له وماذا تفعل في كل لحظة.

-١٣-

خطوبة سلمى

انتهى فصل الشتاء، وحل الربيع جميلاً مشرقاً، وأنهى محمود امتحاناته النصفية ليعود إلى عروسه، هكذا كان يفكر طوال الوقت، وعند خروجه من الكلية قال لإبراهيم دعنا نذهب إلى السوق أولاً ثم نستقل الحافلة إلى القرية، لم يرفض إبراهيم طلب محمود وذهبا إلى السوق ليشتري هديةً لسلمى، ليقدمها لها في أول زيارةٍ رسمية من هذا النوع، فانتقى منديلاً جميلاً أحبه كثيراً، وطوال الطريق وهو يخرجه من جيبه يشمه ثم يقبله ويعيده إلى جيبه من جديد.

يا لهذا الطريق كم هو طويل ماذا لو أنه يقصر اليوم قليلاً هكذا كان يحاكي نفسه طول الوقت فقال لإبراهيم:

_أتدري الآن أستطيع أن أعطيها الرسالة التي كتبتها لها.

_أي رسالة.

_ألم أخبرك؟!

_لا وما قصة هذه الرسالة؟

_لقد كتبت رسالة في الربيع الماضي أعترف فيها بحبي وكنت أنوي إعطائها لها لكني كنت كثير الخوف.

_و أين هي الآن؟

_إنها في خزانتي.

وصل محمود وهو ما يزال يفكر بالكلمات التي سيقولها لسلمى، وهذه المرة دون تردد، ولن تكون صامتة كعادتها بل سوف يصرخ عالياً ليعبر لها عن مدى حبه، وليس خائفٌ من كلام الناس، فهو لم يرها منذ ثلاثة شهور أو يسمع عنها شيء بسبب الضيوف، الذين كانوا دائماً في بيتهم، ومنعوها من الحضور لعند عليا أيضاً.

نزل من الحافلة بسرعة، حمل حقيبته وبدأ بالركض إلى بيتهم، وحين وصل استغرب وجود الجموع أمام بيت أبو أمين، فشعر بتوتر يسيطر على جسده ونفسه بدأ يضيقُ تدريجياً وقدماه على الأرض ثقيلتان، فليس من عادة أقارب أبو أمين زيارته في هذا الوقت من السنة، لا بد من وجود خطبٍ ما،

صار يقترب أكثر، ويسمع صوت الزغاريد عالية، إنها زغاريد الفرح، لكن فرحُ من..؟ كان هذا السؤال الوحيد على لسانه، وهو يعد الخطوات المتبقية ليصل إلى بيته.

وها هي أمه واقفةً بين الجموع عندما رأته، فاتجهت مسرعةً نحوه خائفة والدموع بدأت تغرغر في عينيها، مرتبكة من أن يقوم بعملٍ طائش، نادته وحضنته وعيونها مليئةٌ بالدموع، حتى أنها بللت كتفه.

_أهلاً بني لماذا لم تخبرنا أنك قادمٌ اليوم؟

_ماذا يجري أمي وهذا الفرح لمن؟

سألها حتى دون أن يقول لها مرحباً، وكان بارداً كالثلج لم يحضنها أو يعبر عن شوقه لها.

_أدخل بني تعال.

_أخبريني لمن هذا الفرح لا تتعبي أعصابي أكثر.

شدته أمه إلى الداخل بصعوبة، وكانت الدمعة قد بدأت ترسم طريقها عبر خديه، وشفاهه ترتجف، فشد قبضتهُ بقوة، حتى بانت شرايين ساعده.

_إنها خطوبة سلمى يا بني.

قالتها بصعوبةٍ بالغة، حتى أنها كانت تبلع غصتها مع كل حرفٍ تلفظه.

_هكذا الدنيا يا بني قسمةٌ ونصيب.

_ماذا..؟ ماذا قلت..خطوبة من... سلمى.. أخبريني أنك تمزحين..! لا أنت تمزحين معي.

كان يحاكي أمه ويصرخُ بشدة، ولم يشعر بما يدور حوله، رجع خطوتين للوراء، واستند على الحائط ووضع يديه على صدره، وصار يبكي بشكلٍ لم تراه عينٌ من قبل، ثم ركض إلى غرفته وبدأ بتحطيم كل ما حوله.

حاولت أمه أن تهدأ من روعه دون جدوى، ولكثرة صراخه وبكائهِ الممتزجان بالألم، لم يعد يستطيع التنفس جيداً وهو يقول:

_تريدين أن أهدأ.. وكيف أهدأ..ألم أقل لك أني أريدها وأحبها لما لم تكلمي والدتها أكان يجب أن ننتظر إلى الربيع وها قد أتى الربيع وماذا فعلتِ؟

_أهدأ يا بني كل شيءٍ قسمة ونصيب ذهبنا ولكن عمها كان قد سبقنا ولا نستطيع تجاوزه أنت تعرف العادات.

_تجاوز من... أليس أنا الذي قلت أريدها أولاً، آه.. ما الذي يجري؟

كانت الآهاتُ تخرج من ملئِ ثغره، ويتخبط مثل الذبيحة، وكأن كل شيءٍ قد توقف، بقي على هذا الصراخ ومن شدته وقع على الأرض مغشياً عليه، فحاولت أمه أن توقظه بالماء وهي تبكي بشدة على ما أصاب ولدها، ولا يوجد أحد في المنزل ليساعدها، فالأولاد وأبو محمود عند الجيران، وهي وحيدة مع ولدها الممدد على الأرض لا يحرك ساكناً.

_بني ما الذي أصابك استيقظ أرجوك ولا تحرق قلبي عليك.

ظلت تحاول، حتى استفاق من ذاته ونهض إلى السرير، وقال لأمه:

_أخرجي الآن لا أريد رؤية أحد وأغلقي الباب خلفك.

خرجت أم محمود من الغرفة وهي خائفة عليه من مكروهٍ يصيبه.

أما محمود فحضن وسادته، وأخرج المنديل الذي كان قد ابتاعه من المدينة، ووضعه على وجهه وبدأ يبكي وينوحُ مثل الأطفال.

_لماذا فعلت هذا يا سلمى لماذا وافقتِ أم أنهم أرغموك ألم يكن بوسعك الانتظار قليلاً بعد.

وبدأ يتذكر كيف كانت تنظر إليه، وشعر بدغدغة القلم على قدميه، وذلك اليوم الذي لن ينسه أبداً، خيم الصمت على غرفته وعلى باله نظرتها ذلك الصباح، فارتسمت ابتسامةٌ يملؤها الأنين وظل على هذا الحال إلى أن غفت عيناه من تعب البكاء.

كانت أمه لا زالت واقفةٌ خلف الباب، وحين أحست بهدوءٍ في الغرفة فتحت الباب لترى إن أصابه شيء، فوجدته يئنُ في فراشه كالجريح، فأغلقت الباب وذهبت لبيت أبو أمين بعد أن مسحت دموعها.

انتهت حفلةُ الخطوبة، وعاد الجميع إلى المنزل، أرادت عليا الدخول لتسلم على أخيها المشتاقةُ له، لكن أمها منعتها ومنعت حسان من الدخول إليه، وقالت لهم أنه تعبٌ من

السفر وهو الآن نائم تذمروا قليلاً ثم ذهبا للنوم، وحين اختلت أم محمود بزوجها أخبرته بما جرى لمحمود وكيف تصرف حين سمع الخبر.

انزعج أبو محمود كثيراً على ولده، ولم يكن يتوقع منه كل هذه التصرفات الغريبة، وخاصة عندما أخبرته أنه أغشي عليه فسقطت دمعة هاربة من عينه متأثرةً بما جرى.

تمالك نفسه وقال لأم محمود:

_ دعيني أذهب إليه وأتحدث معه.

_لكنه نائم.

_لا يجب أن نتركه هكذا إلى الصباح.

توجه أبو محمود ناحية غرفة ابنه، ولا يعرف كيف يحاكيه، وحين دخل الغرفة وجده مستلقياً في سريره يتنهد تنهدات تحمل بين وجودها وجعٌ قاسٍ، فناداه:

_محمود.. محمود قم يا بني لنتحدث قليلاً.

قام محمود مباشرة، فهو شابٌ مؤدب ورصين نهض رغم إحباطهِ الشديد وقبل يدي والدهُ.

وحين رآه أبوه على هذا الحال، وعيونه محمرتان لكثرة البكاء والنحيب، شعر بغصةٍ في قلبه لكنه استطاع تمالك نفسه أمام ابنه وقال له:

_الحمدُ لله على سلامتك بني.

_أهلاً أبي.

_ما هذا لما تفعلُ بنفسك هكذا؟

وبدأت نبرة أبو محمود تعلو:

_أهكذا ربيتك إن هذه التصرفات المعيبة التي تقوم بها ليست تصرفات رجال وأنا ربيتُ رجلاً وليس فتاة على حد علمي.

_لكن يا أبي.

_لن أقبل منك أي عذر..قاطعه أبيه بسرعة.

اسمع يا بني هذه قسمة ونصيب، وعلينا أن نرضى بما يقسمه الله لنا، حرامٌ هذه التصرفات. لا يجوز أن تفعل هذا وكأنك تعارض حكم الله، قد حاولنا ولم نهمل الموضوع أبداً وأنت تعرف العادات لا نستطيع تجاوز ابن عمها أبداً وهي

راضيةٌ بذلك ماذا تريدنا أن نفعل هل تريد أن نصير مضحكة الناس في القرية أم تريد وضع رأس والدك في الوحل.

_ لا يا أبي ليس هذا.

هنا كانت لهجة أبو محمود بدأت تهدأ، فوضع يده على وجه محمود ومسح دموعه وقال له:

_أعرف أنك مصدومٌ بالخبر، وأنه شيءٌ مؤلم ولكن يجب أن لا نسيء للبنت أيضاً، وأنت تعرف الناس يريدون أي كلمة ليبدؤوا الحديث بها، وأنت رجلٌ وربيتك رجل أثبت لي ذلك وتصرف بعقلانيةٍ أكثر واحترم قرارهم وبارك لها ولأهلها وتمنى لها التوفيق والسعادة ولا أريد أي تصرفٍ لا يرضيني وإلا لا أنا أبوك ولا أنت ولدي فهمت.

- حسناً كما تريد يا أبي.

تدخلت أم محمود لتهدأ الجو قليلاً:

_على مهلك إن الولد مصدوم ولن يغضبك أنت تعرف كم هو عاقل.

_ماذا يعني مصدوم هل انتهت الدنيا أم أنها توقفت.. مئة بنت تتمناه وما من داعٍ لهذه التصرفات هذا عيب.

لم يجاوب محمود أباه بأي كلمة قاسية، رغم قسوة كلمات أبيه، بل طأطأ رأسه واعتذر منه، فربت أبو محمود على كتفه وخرج وعندما وصل إلى باب الغرفة، استدار ناحية محمود وقال له:

_أريدُ منك وعداً، أن سلمى من الآن وصاعداً مثل أختك وتصرف كأن شيئاً لم يكن ولا أقبل بغير ذلك أبداً.

_أعدك يا أبي.

_بعد غدٍ زفافُ عرفان ابن المختار وقد تلتقي بها هناك ولا تقل لن تحضر بل ستحضر وإذا تلاقت عيونك بها فتصرف بشكل طبيعي جداً.

قال هذه الكلمات وخرج ونادى على أم محمود لتتبعه كان الحزن قد سيطر عليه لما أصاب ولده.

قالت له زوجته:

_ألم تقسو على الولد قليلاً.

_هكذا أفضل كي لا يقوم بأي تصرف جنوني دعينا الآن ننام لنرى ماذا سنفعل غداً.

نام جميع من في البيت، وحتى في الخارج كان الهدوء سيد المكان أما محمود فكان لا يزالُ ساهراً، فخرج إلى الحديقة يفكر بكل ما جرى له، صدق كلام إبراهيم لقد تأخرت كثيراً نعم الحقُ عليَّ أنا فالذنبُ ليس ذنبها، هكذا كان يتمتم.

هبت نسمةٌ باردة حركت أوراق الشجر في الحديقة وكأنها تتهامسُ مع بعضها بكلماتٍ لا يفهمها سوى العشاق وتتراقص الأغصان على أوتار نغماتٍ أتقن صرصار الليل عزفها.

نظر محمود إلى بيت أبو أمين الذي صار موحشاً بالنسبةِ له، وكأنه شعر بأن سلمى تناديه، ولكنه لم يعرف أنها واقفة عند نافذةِ غرفتها في الجهةِ الأخرى للمنزل، تتأملُ هذه الليلة التي كانت تريدها مع محمود، ولكن محمود لم يأتي حتى يوم خطوبتها لم يأتي، فلو أنه أتى لكانت تركت الحفل وخرجت معه لو رأت أي تلميحٍ منه، ولم تعرف أيضاً ما الذي حدث لمحمود حين سمع الخبر.

بـدأت خيـوط الفجـر تـشقُ طريقهـا عـبر الغيـوم الربيعيـة، فالجو هنا يبقى بارداً حتى حلول شهر أيـار، أمـا في آذار يبقـى البرد طاغٍ على الجو، فدخل محمود إلى البيت لينام.

أشـرقت الـشمس مبللـةً بـدموع البكـاء، وأتعبهـا النحيـبُ القـادم مـن البعيـد، ومحمـود مـا زال يتقلـبُ في فراشـه متوسـلاً النوم وما من مجيب.

استيقظ الجميعُ في البيـت، وهـمَّ أبـو محمـود للـذهاب إلى الحقل مع حسان، وقبـل ذهابه أوصـى أم محمـود أن لا تـوقظ محمود، كأن أحدٌ أوصاه أنه بقي طوال الليل ساهر.

لبـت أم محمـود طلـب زوجهـا دون تعليـق، وأيقظـت عليـا لتـساعدها في أعمـال المنـزل، وبينمـا همـا يعمـلان سـألت أم محمود عليا:

_كيف رأيت شعور سلمى البارحة أهي سعيدة؟

_لـست أدري أمـي لم تكـن كبـاقي البنـات لا فرحـةً تمـلأُ وجهها أو ابتسامةٌ تعبرُ عن سعادتها، هنـاك حـزنٌ عميـقٌ في عيونها.

_ ألم تقل شيئاً لك؟

_ لا فكلما تحدثنا عن الخطوبة تقول هذه قسمةٌ ونصيب وتغلق الموضوع.

تنهدت أم محمود بعمق وقالت:

_الله يسعد أيامها.

أفاق محمود وخرج من غرفته، وعلى وجهه التعب ظاهر، ركضت إليه عليا لتعانقه وتقبله، ولكنها شعرت بسلامهِ بارداً جداً، ليس كعادته فهو لم يلاقيها بالابتسامة والنكتة، حتى لم يقل أي كلمة على الإطلاق.

استغربت تصرفه البارد... أحست به كقطعةٍ من الجليد خاليةٍ من الأحاسيس والمشاعر، نظرت إلى أمها وسألتها:

_أمي.. ما به محمود لماذا هو باهتٌ هكذا؟

_الله أعلم يا ابنتي قد يكون تعبٌ من عناء السفر أو أن شيئاً ما أزعجه في الكلية اتركيه لا تضايقيه.

بقي محمود في غرفته ولم يغادرها طوال اليوم، ولم يخرج إلى الغداء أو العشاء بل بقي سجين غرفته طوال الوقت، ولم يزعجه أحد من أهل البيت كان وجهه ذابلٌ كوردةٍ عطشى.

وجاء يومٌ آخر ومحمود على حاله، كئيب لا يضحك أو يبتسم إلى أن جاء والده وقال له:

_محمود هيا جهز نفسك سنذهب إلى بيت المختار لحضور زفاف ولده.

_حاضر يا أبي.

سأل أبو محمود زوجتهِ عن حال ابنهما فأخبرته أنه بقي حبيس غرفته ولم يغادرها منذ البارحة ولم يأكل شيئاً، شعر أبو محمود بالأسف لحال ابنه، وقال:

_لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الزفاف في القرية جميل مع بساطته، حيث يجتمع الأهالي في ساحة القرية ليقيموا الأفراح، فكانت هي مركز الأفراح والأتراح.

كانت الساحة وبيت المختار قد زينوا بأجمل الورود، والمكان يعجُ بالضيوف من القرية وخارجها.

الرجالُ والنساء الكبار كانوا مسؤولين عن استقبال الضيوف وتقديم الضيافة لهم، أما الشباب فكانوا يقومون

بالحفل من غناء وحلقات دبكة وغيرها، والكل يشارك بالفرح من صغيرٍ وكبير.

وصلت عائلة أبو محمود إلى الحفل، فذهب أبو محمود للقاء الرجال، وزوجته لبين النسوة، أما الأولاد دخلوا وسط الحفل، وكان محمود من الشباب الذين يغنون الدبكة بشكلٍ جيد.

و بعد أن جلس الجميع وأخذوا يغنون مع الذين في الحلقة، تقدم بعض الشبان يطلبون من محمود غناء الدلعونا ومشاركتهم في الدبكة، ولكنه كان يعتذر منهم.

أخذته عليا من يده تشدهُ.

_هيا يا محمود يجب أن نشاركهم.

بينما هم يشدونه، وقع نظرهُ على سلمى داخلةً مع خطيبها، فشعر بالنار تأكل من جسده، ولكنه تذكر وعدهُ لأبيه وتمالك نفسه وقام إلى حلقة الدبكة حتى لا تمرُ سلمى من أمامه فيحرجها.

منذ دخلت سلمى، كانت تبحثُ عنه بعيونها، وحين رأته شعرت بالدمعة تحاول الخروج، لكنها منعتها وابتلعت الغصة

التي تحرق قلبها ، فهي كانت مقتنعة أن محمود لا يفكر فيها ولا يحبها ، تقدموا الصبايا إليها أيضاً يدعونها لمشاركة محمود غناء الدلعونا فهما دائماً يغنيان أبيات الدلعونا معاً.

قامت سلمى ومسكت معهم في الحلقة ، وبقي خطيبها مع أخيها وبعض الشبان الجالسين يتبادل الحديث معهم.

انتبهت أم محمود لقدوم سلمى وكيف أن محمود قام بسرعة كي يتجاهل محاكاتها فسرت لتصرفه العاقل.

عندما رآها محمود قامت إلى الحلقة ، راح يغني هذه الأبيات :

على دلعونا.. وعلى دلعونا

انشا الله هالفرح بالهنا يكونا

جاي مع حبيبو مش ساءل عني

جو القلب العني بضهر العني

حبون بالقلب حفر لما بالقلم دغدغونا

وتجاوبه المجموعة :

على دلعونا.. وعلى دلعونا

انشا الله هالفرح بالهنا يكونا

ثم أكمل :

حبك ما بنسى.. حبك ما بنسى

لو بحور الدني موجها بيرسى

و لو نجوم السما ع الأرض بترسى

باقي عَ الوفا هيك يلي حبوا قبل علمونا

وتجاوبه المجموعة :

على الدلعونا .. وعلى الدلعونا

إن شاء الله هالفرح بالهنا يكونا

سمعت سلمى الأبيات بإمعان وفهمت قصد محمود، فأخذت الغناء عنه وقالت بأبيات تجاوبه :

حبيبي يلي حبيتو غاب عني

ما في بيني وبينو ولا إشارة تطمني

كل يلي كان بينا حكي العيونا

وتجاوبها المجموعة :

على الدلعونا...وعلى الدلعونا

انشا الله هالفرح بالهنا يكونا

ثم تكمل :

حبك بقلبي ركنتو ع جنب

بوجع قلبي وقلبك ما حدا السبب

هيك قسمتي ونصيبي

وأنا ما بنساك لو صار عمري مليونا

ثم رد عليها محمود:

أنا اتأخرت وأنت استعجلتي

بلغة عيوني لا صدقت ولا آمنت

قلبي من جوا حرقت

إن شاء الله بتتهني يا نور عيونا

قالها محمود وترك حلقة الدبكة، فلم يعد قادراً على سماع هذه الكلمات التي أكدت بها سلمى أنها تحبه، وجلس على كرسيه خوفاً من أن ينتبه أحد لمعنى الكلمات إذا استمر في الحلقة فيسبب المشاكل لسلمى مع خطيبها.

وفي الجهة المقابلة كانت أمه تراقبه، وهي خائفة من حدوث شيء كهذا وعند سماعها كلمات محمود وما ردت به سلمى فهمت وجع الاثنان فهي من علمت محمود الدلعونا وأصول غنائها وعدا عن ذلك فقد كانت تراقب كلماته وتصرفاته.

فسالت دموعها على خديها حسرةً على ولدها الذي ينهارُ أمام عينيها ولا تستطيع فعل شيء لأجله.

بينما كان محمود جالساً على كرسيه وصل وفدٌ من القرى المجاورة وبينهم إبراهيم صديق محمود، فركض إليه واستقبلهُ استقبالاً حاراً.

_لماذا تأخرت هكذا؟

_لماذا أنت هكذا ما بك يا محمود؟

_كم أنا بحاجةٍ لك أكاد أختنق.

_لما تحتاجني والذين تحتاجهم كلهم عندك هنا.

لم يكن إبراهيم على علمٍ بما جرى مع محمود، وكيف أنه خسر حبه الكبير، والصدمة التي أصابته بعد عودته من المدينة فقد تركهُ قبل يومين فقط وهو لا يزالُ يخبره عن ذلك اليوم الذي دخلت سلمى غرفته وأيقظته بالقلم، وكيف حضرت له الطعام ونظرات عيونها.

_أرجوك كفاك هزلاً الآن أصمت وكن على علم لن تذهب اليوم ستنام عندي احتاج لمن أكلمه ولا أحد غيرك يفهمني.

نظر إبراهيم إليه، وهذا الألم الظاهر في صوته وعبوسهِ اللذان لا يفارقان وجههُ.

_ماذا هناك يا محمود أنت لا تعجبني اليوم ثم لاحظت أنك لست مع سلمى.

_ألم أقل لك سنتكلم لاحقاً قم الآن إلى الدبكة.

قام محمود وإبراهيم فأمسك محمود بجانب أخته عليا، وإبراهيم بجانبه، وعندها انتبه إبراهيم إلى سلمى جالسة مع شاب لم يره قبل، وكانت متأبطةً ذراعه، ولكن يبدو على وجهها الحزن وكثيراً ما تحاول سرقة بعض النظرات إلى محمود، ففهم بعض الذي قاله محمود ولماذا يريده البقاء عنده الليلة.

و بالمقابل كان محمود ينظر إلى سلمى دون أن يشعر به أحد، وكلما نظر إليها يزدادُ غضباً وقهراً، لذا قرر ترك الدبكة والخروج قليلاً، فقال لإبراهيم:

_اعذرني سأخرج قليلاً هذه أختي عليا... عليا هذا إبراهيم

تركهم محمود وخرج، وكان إبراهيم يريد اللحاق به لكن محمود منعه.

نظر إبراهيم إلى عليا محاولاً فتح الحديث، معها فقال لها:

_إذاً أنت عليا.. قد حدثني محمود عنك.

_نعم هذه أنا لماذا أنت مستغرب، مع أننا التقينا كثيراً أراك تتحدث معي وكأننا لأول مرةٍ نلتقي!

_ليس هذا إنما لم يكن هناك لقاء مباشر مثل اليوم، أليست مصادفة جميلة؟!

لم تعرف عليا بما تجيب، ففضلت الصمت، أما إبراهيم كان ينظر إليها ولجاذبيتها ونعومة جمالها، فهي لم تكن بمثلِ جمال أخيها لكنها جذابة جداً.

وقف محمود يفكر بما سيفعله، فهذا الوضع لا يحتمل، كيف سيكون موجوداً وهي أمامه، ولن يستطيع فعل شيء وسيبقى يحترق فلم يجد حلاً سوى السفر بعيداً.

انتهى حفل الزفاف، وعاد إبراهيم مع محمود إلى بيته بعد إصرار محمود، ولما وجده من ضرورة بقائه.

دخل الصديقان غرفة محمود، وجهزت عليا لهما الشاي، فقال إبراهيم لمحمود:

_ها نحن لوحدنا الآن تكلم.

أخبر محمود إبراهيم كامل الأحداث التي جرت منذ أن

تركه في الحافلة إلى وقت وصوله عنده.

شعر إبراهيم بالأسى على محمود، وحاول أن يهدأ من وتيرة غضبه ويأسه.

ثم قال محمود:

_أنا السبب فيما حصل لي كان يجب أن أخبرها من البداية أني أحبها.

_كيف هذا لو أنها تحبك لما وافقت على ابن عمها.

_لقد تأكدتُ من ذلك حين غنت الدلعونا فقالت في الأبيات أنها تحبني ولامتني لتأخري في مصارحتها.

_إني آسفُ لوضعك هذا لكن لا تفعل بنفسك هكذا وحاول نسيانها فأنت تعرف العادات إن فعلت شيئاً لن يحصل خيراً لا لك ولا للفتاة.

_أعرف هذا.. لن أحطم حياتها أو سمعتها بتصرفاتٍ طائشة إني أتمنى لها التوفيق والسعادة طوال حياتها بالرغم من الجرح الكبير في داخلي هي لا ذنب لها فقد قالت في أحد الأبيات:

حبيبي يلي حبيتو غاب عني

ما في بيني وبينو ولا إشارة تطمني

فعلاً لم أفعل أي شيء لأطمئنها فالحق عليَّ أنا

_لا بأس عليك يا صديقي فالزمن كفيل بنسيانك لها.

_لا أستطيعُ البقاء هنا يا إبراهيم سأتعذب كثيراً ولن أستطيع الصمود.

_ ماذا ستفعل هل ستبقى في المدينة إلى الأبد؟

_لا.. قد فكرتُ كثيراً والوضع صار أصعب بعد ما سمعته منها اليوم ولن أسامح نفسي إذا جرى لها شيء لذا سأسافر إلى خارج البلاد أفضل لي ولها.

_ما هذا الجنون..؟ وأهلك هنا هل فكرت بما سيجري لهم في حال سافرت ولم يبقى لك سوى هذا الفصل وتتخرج لا تكن متهوراً.

_لم يعد يهم أريد الابتعاد فحسب.

مع كل محاولات إبراهيم لإقناع محمود بالعدول عن قراره لكنه فشل، وفي النهاية قرر الاثنان النوم وترك الأمور إلى اليوم التالي.

لم يكن عذابُ سلمى أقل من عذاب محمود بعد سماعها غناءه، وتأكدت أنها كانت تفهم عيونه ونظراته إذا كانت مشتاقة،

لكن ما العمل فحتى لو حاولت العدول عن قرار الخطوبة سيكون مصيرها سيئاً، ولن يرضى والدها حتى لو قتلت نفسها، وهي لن ترضى إغضاب أبيها مهما كلفها ذلك، وستحاول منع نفسها من التفكير فيه، فهي تربت على الإخلاص لزوجها وبيتها ستحاول إسكات قلبها، كما أن عادل يحترمها وهو مخلصٌ لها ويحبها كثيراً، فلماذا تفعلُ شيئاً يسيء له ولأهلها، وبقيت هكذا والدموع لا تتوقف إلى أن غافلها النوم وحضن جسدها.

والشيء المفاجئ في صباح اليوم التالي أن عليا كانت أول المستيقظين، فقد أعجبت بإبراهيم وهدوءه اللطيف وسلاسة كلامه العذب، فقامت لتعد القهوة له ولأخيها.

تقدمت عليا ناحية غرفة أخيها تسأله:

_محمود هيا استيقظ لقد أعددت لكما القهوة هل تريدونها في الغرفة أم على الشرفة.

_لا أختي سنشربها على الشرفة ضعيها هناك.

خرج محمود وإبراهيم من الغرفة، وغسلا وجهيهما وبدلا ملابس النوم واتجها إلى الشرفة.

سلموا على الجميع وكان أبو محمود وزوجته يتساءلان عن

وضع محمود بعد لقاءه بسلمى، ولكن أم محمود لم تخبره بما جرى كي لا تغضبه.

جلس الجميع لشرب القهوة، فقال إبراهيم:

_ما أطيب هذه القهوة سلمت يداك يا عليا.

_هل أعجبتك؟

_نعم شكراً لك.

ذهب أبو محمود ومعه حسان إلى الحقل، أما عليا وأمها قاما لتحضير طعام الفطور، وبقي محمود وإبراهيم يتحدثان محاولاً إبراهيم إقناع محمود بالعدول عن قرار السفر، هذا فقال إبراهيم:

_ما رأيك بالذهاب معي إلى القرية وهناك تسوي الأمر وترتاح قليلاً من التوتر الذي أنت فيه وتكون ابتعدت عن القرية.

أعجبت محمود الفكرة وبعد الفطور أخبر والدته أنه ذاهبٌ ليمضي بضعة أيام في قرية إبراهيم ليرتاح ثم يعود.

لم تعارضه على ذلك وفكرت بأن ذلك أفضل له عله ينسى قليلاً مصابه وأوصت إبراهيم بمحمود.

-١٤-

غـادر محمـود وإبـراهيم القريـة، وحـين وصـلوا إلى قريـة إبراهيم استقبله المختار والد إبراهيم، وتعـارفوا علـى بعـضهم وعلى أمه وإخوته.

كان إبراهيم يحاول ملئ الوقت مع الأصحاب كي ينسى محمود التفكير بسلمى، وكـانوا في كـل يـوم يـذهبون إلى مكـانٍ مختلف ويسهرون حتى وقـتٍ متأخر، عـل محمـود ينسى أيـضاً موضـوع الـسفر، بقـي محمـود حـوالي الثلاثـة أيـام، لكـن دون جدوى فكل يومٍ عندما يعود إلى البيت، يدخل في صراعٍ مرير مع الوسادة، والألم لا يفارقه، فقرر العـودة إلى القريـة وأخـبر إبراهيم بعزمه على ذلك.

_إبراهيم أشكرك على ما فعلته لأجلي لكني سأغادر اليوم إلى البيت.

_ما الذي تقوله ابقى عندي لماذا تذهب؟

_يتوجب علي تحضير نفسي للسفر.

_ألم ننتهي من هذا الموضوع بعد؟

_لا لم ننتهي يجب عليَّ الرحيل والسفر بعيداً وهناك بعض الأوراق التي يجب تسويتها.

_إلى أين ستسافر؟

_لا أدري إلى البرازيل أو أمريكا بلاد الله واسعة يا رجل.

_لكن كل الذين سافروا لم يعودوا والذين عادوا منهم قلائل وعادوا بعد سنينٍ طويلة.

_قد فكرت وانتهى الموضوع بالنسبة لي، فلا شيء أبقى لأجله هنا.

_لكن والديك لن يسمحا لك بالسفر.

_إن منعوني سأسافر دون علمهم.

-١٥-

قرار السفر

رجع محمود إلى قريته وهو عازمٌ على قراره مهما كلفه ذلك، وعندما وصل إلى البيت انتظر والده حتى عاد من الحقل ليفاتحه بالأمر.

_مرحباً أبي.

_أهلاً بني متى أتيت؟

_اليوم ولكن أريدُ مساعدتك بأمر.

كانت طريقةُ كلام محمود غريبة بعض الشيء لم يرتاح لها أبيه، فقال له:

_ماذا هناك يا محمود؟

_أريد السفر.

تفاجأ والده بالخبر:

_ماذا؟... تريد السفر إلى أين؟

_إلى البرازيل.

_و دراستك.

_سأكملها حين أعود هي سنةٌ واحدة فقط لن أغيب طويلاً.

_سنة هل تريدني أن أصدق هذا الهراء أكمل دراستك أولاً وبعدها فكر كما تريد أما الآن لا.

_أبي أرجوك افهمني لم أعد قادراً على البقاء هنا فأنا أشعر بأني أنهار والسفر أفضل حل وهذه المرة لا تعارضني أرجوك فأنا لم أخالف لك أمر في حياتي لكن هذه المرة لن أستطيع البقاء حتى لو حاولت منعي.

كانت الدموع تملأ خدي محمود، وصوته يرتجف، فانكب على حضن والده يقبل يداه ويرجوه السماح له بالسفر وإقناع أمه، فهو يعرف أنها لن توافق على ذلك أبداً.

شعر أبو محمود بأن الأمر لا مجال للمجادلة فيه، ومحمود عازمٌ على ذلك، و قد حسم أمره ولا أمل في التراجع، وهو لا يريد ذهابه غاضباً خوفاً أن يرحل ولا يعود أبداً، فقبل بذلك ووعده بإقناع أمه.

وعند المساء وبعد أن نام الجميع دخل أبو محمود غرفة النوم، وكانت أم محمود تستعد أيضاً للنوم، فقال لها:

_هل أخبرك محمود بما هو عازمٌ عليه؟

_لا.. لم يقل لي شيء ماذا هناك؟

_لقد قرر السفر إلى البرازيل.

_ماذا تقول.. ؟ كيف ومتى؟

_اهدأي..

_كيف تريدني أن أهدأ.

_ دعينا نفكر قليلاً بشكلٍ منطقي هو يريد السفر قبلنا أم لا قالها لي بكل صراحة وأنا لا أريد خسارة ابني وتكرار ما حصل مع أخي حين منعه والدي شنق نفسه في غرفته.

_لا تقل ذلك أرجوك لابد من حل.

_اسمعيني، إذا سافر نعرف أنه حيٌ يرزق وبصحةٍ جيدة، وأنا أخشى إن منعناه أن يسافر ولا يعود أبداً، أما هكذا فإنه سيغيبُ سنة ويعود أما إذا منعناه لا أستطيع نسيان شكل أخي في ذلك اليوم وهو معلق في غرفته كل هذا لأن والدي لم يطلب يد الفتاة التي أحبها لذا أرجوك لا تعارضي.

_ ودراسته فقد قارب على النهاية ليكمل أولاً ثم يذهب.

_حاولت إقناعه بذلك ولكنه رفض لعله إذا سافر ينسى ألمه أنت تعرفين ولدنا.

_ومن سافر وعاد بعد سنة كل الذين سافروا ماتوا في الغربة ولا أريد أن أموت حسرةً عليه.

_لقد وعدني أنه لن يغيب طويلاً أدعي له أن يوفقه الله ويعود سالماً.

جلست أم محمود تبكي وتنوح على قرار ابنها الغير متوقع، وتتضرع إلى الله أن يهديه ويتراجع عن سفره ويبرد قلبه المحترق.

بدأ محمود بالفعل القيام بأوراق السفر المطلوبة خلال عدة أيام، وأتم الحجز على الرحلة المغادرة إلى البرازيل.

في هذه الفترة حاولت والدته إقناعه بعدم السفر، وأخبرت أخته بذلك لكنه لم يكن هناك أي وسيلة لإقناعه، فظل متمسكاً بقراره، وبعد عدة أيام جاء إبراهيم ليرى محمود ويعرف منه ما كان قراره أخيراً، وحين قرع الباب فتحت له عليا، وكانت الابتسامة الخجولة على وجهها تلفت النظر برقتها.

_أهلاً إبراهيم تفضل بالدخول.

_هل محمود هنا؟

_نعم إنه بالداخل.

صار قلب عليا يشبه بدقاته زقزقة العصافير الصغيرة، فرحٌ وكأنه لأول مرةً يغادر عشه ويطير.

نادت عليا على محمود وأعلمته بقدوم إبراهيم.

_أهلاً إبراهيم كيف حالك؟

_كيف حالك اليوم يا صديقي؟

_كما أنا لم يتغير شيء.

_أفهم منك أنك ما زلت عازمٌ على السفر.

_إن شاء الله بعد ثلاثة أيام موعد الباخرة.

_و كيف تقبل والديك الأمر؟

_اقتنعوا مرغمين ولكن صدقني يعز في نفسي فراقهم فأنت تعرف كم دمعةُ أمي غاليةٌ عليّ وهي منذ عرفت لم تجف دموعها.

بقي إبراهيم طيلة الأيام المتبقية عند محمود، وكانت هذه فرصةً له للتقرب من عليا التي سرت ببقائه، حتى أن محمود

انتبه لنظراتهم، واهتمام عليا بإبراهيم، فرح بذلك لأنه يحب صديقه كثيراً وهو أفضل ما يتمناه لأخته الصغيرة.

جاءت أخته مع زوجها وابنتها لوداعه قبل الرحيل، وعند المساء جلس الجميع على الشرفة، وجاء بيت أبو أمين لوداعه لكن سلمى لم تحضر معهم.

حين رآهم محمود يدخلون انتفض قلبه، وصار يدق بسرعة، ظن أن سلمى أتت معهم لكن عندما عرف أنها ليست معهم نظر ناحية منزلهم فوجدها واقفة خلف النافذة تنظر إليه من بعيد، فهي لن تستطيع القدوم والوقوف أمامه.

_في أي مدينة ستقيم يا محمود.. قالها إبراهيم وهو عارفٌ أن محمود لن يعود أبداً.

_لا أعرف بعد فالبرازيل كبيرة جداً وأين أجد عملاً سأبقى.

_على خيرٍ إن شاء الله عليك العودة بسرعة لتفرح قلب أمك بعروسٍ جميلة وإياك أن تتزوج بفتاةٍ من هناك.

_علينا أن نفرح بك أولاً يا صديقي.

نظر إليه.. ثم نظر إلى عليا التي خجلت من نظرات أخيها وكأنه يعرف بما في داخلها.

_قريباً سأجد ابنة الحلال وستكون أول من يعلم

_كيف لي أن أعلم وأنا مسافر؟

_ألن تبعث لنا بعنوانك سأرسل لك رسالة أخبرك بها.

_اسمع من أخاك يا إبراهيم إن أحببت يوماً إياك أن تتأخر في إخبارها حتى لا يصيبك ما أصابني.

كانت الابتسامات التي ترسم على الوجوه كاذبة، تخفي وراء الشفاه المسدلة الزوايا ألماً، يجعل الأسنان تصطك ببعضها دون يقين.

كان قرار الرحيل صدمةً للجميع، ولا أحد يعرف السبب سوى أهل البيت، حتى بيت أبو أمين المقربين جداً لم يعرفوا السبب.

اقتربت عليا من محمود وحضنته بقوة، ثم قالت:

_كيف سأبقى دونك وحيدة من ذا الذي سيحضنني بغيابك ويضحكني ويلاعبني مثلك يا أخي.

_لن تكوني وحدك هناك حسان وسيكون مكاني في كل ما تريدين ثم أنك ما عدت الصغيرة المدللة قريباً يأتي الرجل الذي تختارينه ويملئ حياتك بالحب والحنان.

أنهار الدموع كيف تجف، والفراق بات حقيقةً مؤلمة، ولا أحد يعرف إن كان اللقاء قريباً أو متى سيكون، والوجع عنوانه السفر عبر البحار، وكيف الأمن مكفولٌ في عرض البحار.

انتبه إبراهيم لدموع عليا الغزيرة، والتي غطت وجهها الجميل، فتناول منديلاً من جيبه وناولها إياه، وحين نظر إلى عيناها الباكيتان المشعتان ببراءةٍ، تُبكي معها الجبال الراسخة، وتحنوا أمامها الأشجار العالية، ربما لن يكفي الوصف لكن الحقيقة دائماً هي الأجمل.

_امسحي دموعك أرجوك فأنا أكاد أذرف الدموع مع دموعك.

قال إبراهيم هذا وكاد ينسى وجود من حوله.

حين رأى محمود أمه وإخوته يبكون، قال لهم:

_لا تبكوا أرجوكم فالأمر صعبٌ عليَّ أيضاً.. وأعدكم بأني سأعود بأقرب فرصة تسمح لي فيها الظروف ويجب أن تكونوا معتادين على غيابي فأنا كنت أقضي أياماً طويلة غائباً في الكلية ما الجديد الآن.

فقالت له نهلة:

_الجديد يا أخي أنك مسافرٌ لبلادٍ بعيدة ولا أحد يعرفُ كم ستغيب أما هنا كنت أكثر المرات تغيب فيها ليست أكثر من شهرين أو ثلاثة.

حين قالت نهلة هذا، بدأ الجميع يبكي بشدة قد أحسوا أن الفراق سيكون طويلاً مهما قصرت مدته، حتى والده فقد رباطة جأشه وسالت دموعه.

فقالت نهلة لأبيها:

_أبي كيف لم تمنع محمود من السفر؟

_ما لا تعرفينه يا ابنتي أني رأيت هذا الوجع في عيون أخي مرة ولا أريد أن يصيبني ما أصاب جدك بسبب عناده.

انتبه الجميع لكلام أبو محمود، فسأله أبو أمين:

_ماذا جرى له؟

_لقد كان يحب فتاةٍ في القرية وأنا كنت في الجيش هذا قبل زواجي فهو يكبرني بسنة واحدة وحين طلب من أبي تزويجه رفض حتى أنه قال له إن فتحت هذا الموضوع ثانيةً سأغضب عليك.

كان يخبرني عنها دائماً فهي كانت ابنة أحد العاملين لدينا وهذا سبب رفض والدي لها.

حاولت إقناعه لكنه لم يستجيب لي، حتى والدتي كانت ترجوه لكن قسوته ورأسه الصعب المراس ل، م يجعله يحن على أخي، وأنت تعرف يا أبو أمين كيف كان آبائنا ينظرون إلى طبقة الفلاحين على أنهم ليسوا من مستوانا، فكان يريد أن يخطب له ابنة عمي فهي وحيدة أبيها وكان لا يريد أن تذهب الأملاك للغريب حتى أني أذكر كلمة قالها له:

_ابنة عمك أولى بك.

فقال له أخي:

_أبي إن لم تزوجني بقطر الندى سأقتل نفسي.

فقال له:

_حتى لو علقت مشنقتك لن تحصل عليها.

ولم يمضي يومان عاد والدي من الأراضي هو وأمي فوجدا أخي معلقاً في وسط غرفة الجلوس، وكان قد شنق نفسه.

قال إبراهيم:

_هنا في هذا البيت.

_لا بعد موت أخي بحوالي الشهرين، باع أبي البيت واشترى هذا عوضاً عنه، كي ينسى ذنبه الكبير الذي كان سبباً في موته مبكراً فبعد موت أخي بحوالي السنة ماتت أمي من حسرتها على أخي أما أبي لكثرة حبه لأمي لم يعد كسابق عهده فقد انهارت قواه وضعف كثيراً ولم يمضي إلا شهران حتى توفي وبقيت وحيداً وأختي لديها زوجها وأولادها في أنطاكية ومنذ ذلك الوقت لم نلتقي وبقيت وحيداً إلى أن تزوجت بأم محمود.

حزن الجميع على ما جرى لعمهم، وهو ما لم يعرفوه قبلاً فهذا الشيء لم يقله أبو محمود قبل هذا اليوم أبداً، بل كان يقول لهم أنه مات في حادثة.

مرت الأيام بسرعة وغداً الرحيل، كان محمود قد وضب أغراضه وبدأ يستقبل أبناء القرية القادمين لوداعه من رجالٍ ونساء وأصدقائه الشباب، كانت ليلةً طويلة متعبة للجميع.

والذي أثار استغراب محمود أن سلمى لم تأتي لوداعه أو لرؤيته للمرة الأخيرة قبل سفره، وهو لم يرها منذ عرس ابن المختار احتار في أمره، وماذا يفعل ليراها، كان يحاكي نفسه لابد لي من رؤيتها قبل سفري ولو من بعيد.

غادر الجميع وعمَّ الهدوء البيت بعد نهارٍ طويل من الضجة العالية واحتراق القلوب بنار الغربة قبل الرحيل، ووداع المكان ورائحته وعبق أزهاره الربيعية قد حان.

خرج محمود إلى الحديقة، وأمسك خرطوم الماء وبدأ يروي الورود، حين نظر لبيت أبو أمين انتبه أن النور في غرفة الجلوس قد أُضيئَ، فاقترب منه قليلاً، ليرى سلمى واقفة تنظر إليه والدموع على خديها تكوي القلب بشهقاتٍ تخنق الصدر، وتأخذ الروح من الجسد.

فتحت سلمى النافذة لتراه جيداً، فاقترب محمود إليها ووقف صامتاً دون أي كلمة، كأن الكلام لا مكان له في هذه اللحظة.

فقالت له سلمى:

_غداً السفر إذاً! رافقك الله في خطواتك.

_نعم غداً هو السفر سأقول لك شيئاً قبل رحيلي.

_لا تقل شيئاً أرجوك سأدخل وداعاً.

_سلمى أرجوك أنت ابقي لحظة من فضلك.

قال لها عندها:

قلبي مفارق أحبابو

عضّو الدهر بنيابو

صوّب سهم الهجر عليه ومن أول رمية صابو

صوّب سهم الهجر والهم

وعَ فراقو حملني الهم

وكحل جفاني بالدم أمالي لما خابوا

مهما طالت أيامك مش ممكن انسى هيامك

عَ قبري إن بتمر بقدامك قبري بيرقص بترابو

تنهدت سلمى بقوة، ولم تعد تستطيع البقاء واقفةٌ أكثر، فاتجهت مسرعة إلى الداخل وأغلقت النافذة لتنكب فوق سريرها وترطب وسادتها من كثرة البكاء، والصراخُ صعبٌ، فماذا تقولُ لوالديها إن أفاقا، فكانت تعن بصعوبة، والأنين يخرج من ثغرها مبللاً بريق العذاب.

دخل محمود إلى البيت فوجد نهلة تنظر إليه بشفقة، فسألته:

_لما لم تخبرني أنك تحبها إلى هذا الحد ألست أختك؟

_سأكون بخير لا تقلقي.

_تحبان بعضكما لهذا القدر وتتركها.

_أختي كفانا حديثٌ عن هذا، دعك منه ما مضى قد مضى ثم أني لا أريد أن أتسبب لها بالمشاكل مع عائلتها فأنت تعرفين كيف تفكر الناس.

_ قالت لي والدتك ما حدث في بيت المختار وهي حزينةٌ جداً وتشعر بأنها السبب في وجعك وسفرك معاً.

_لا أحد السبب يا أختي فأنا الذي لم أقل لها أني أحبها الحق عليَّ وحدي أخبري أمك بذلك والسفر هو أفضل لي

وللجميع أما الآن تصبحين على خير يجب علي الاستيقاظ باكراً للسفر إلى الميناء فالباخرة ستغادر عند المساء.

هم محمود بالدخول إلى غرفته فنادته نهلة :

_أخي.

حين نظر إليها.. وكان يريد البكاء بشدة على ألمه الذي لا يطاق، فاقترب منها وحضنها بقوة، صار يبكي كطفلٍ، وهذه أول مرة التي تراه نهلة في هذه الحالة، مما جعلها تبكي معه ثم قبل رأسها وقال لها :

_أنا بخير لا تقلقي.

دخل محمود غرفتهُ وأمسك قلم الفحم وكتب على الجدار.

اليوم الأحد الواقع في ١٩٥١/٤/١١ الساعة الرابعة فجراً

خمس ساعاتٍ لموعد الرحيل ليسامحنا الله جميعاً على ما اقترفته أيدينا من أخطاء.

ثم وقع تحتها بخطٍ عريض وذهب للنوم.

كانت أم محمود منهارةٌ جداً، وهي تظن أنها السبب الذي جعل ابنها يصل إلى هذا القرار، وكان أبو محمود يحاول دائماً تسهيل الأمور عليها، ويقول لها:

_لا تتحملِ هذا الذنب فهذا ترتيب الله لما أنت تلومين نفسك.

فقالت له:

_لو أني كلمت أم أمين مباشرةً لما كنت فقدت ابني.

بقيت أم محمود تعاتب نفسها إلى أن جاء موعد الرحيل.

وصلت السيارة التي ستقلُ محمود، واجتمع الجميع عند الباب لوداعه وإشباع عيونهم به، حتى بيت أبو أمين جاؤوا ولم تأتي سلمى معهم هذه المرة أيضاً، بل كانت واقفة على الشرفة.

اتجه محمود إلى السيارة ونظر ناحية سلمى، ولم يسمح لنفسه حتى أن يجعل خطواته بطيئة، فالجميع ينظر إليه، فاكتفى بأن لوح لها بيده وهي لوحت له بيدها، ثم صعد السيارة مع أبيه وأخيه حسان وصديقه إبراهيم متجهين إلى الشاطئ.

قالت سلمى بصوت خفيف لا يسمعه سواها :

_مع السلامة يا محمود مع السلامة يا حبيبي الذي لن أنساك أبداً أعلم لما رحلت وخيراً ما فعلت.

ثم دخلت غرفتها ، فهذه المرة الأخيرة التي ستراه فيها ، والمرة الأخيرة التي تسمح لنفسها بالتفكير فيه ، فهي الآن لرجلٍ آخر ولها بيتها وحياتها الجديدين ، كل هذا يمنعها من التفكير به.

بعد مغادرة محمود ، دخلت أم محمود ومن كان معها إلى البيت ، فتركتهم واتجهت ناحية غرفة محمود ، فتحت الباب وجلست فوق سريره تبكي ، وحين نظرت إلى الجدار قرأت الكلمات التي كتبها محمود فاشتد نحيبها حين قرأت عبارة (ليسامحنا الله جميعاً على ما اقترفته أيدينا من أخطاء).

في هذه اللحظة تبعت نهلة أمها لتطمئن عليها ، لأنها تأخرت وحين وجدتها على هذه الحال ركضت إليها.

_أمي ماذا بك تبكين وكأن أخي لا سمح الله قد مات.

_انظري إلى ما كتبه أخاك هنا لولا ألمه الكبير ما كان كتب هذا وأنا السبب في ذلك.

_لا تقولي هذا فقد قال لي البارحة أن أخبرك أنه يحبك

جداً ولست السبب بذلك فهو الذي لم يخبرها أنه يحبها هيا الآن فالضيوف ما زالوا في الأسفل.

وصل محمود إلى الشاطئ الذي يعج بالناس، منهم المسافرون ومنهم المودعون، وأناسٌ يعملون في الميناء وعلى ظهر السفن.

اقترب محمود من أبيه وعانقه بشدة، ثم قبل يديه، وقال له:

_أحتاج إلى رضاك عني يا أبي.

ثم عانق إبراهيم وصهره، وودعهم والدموع تملأ الخدود ثم قال:

_الوداع يا أبي وأخبر أمي أنه لا أحد السبب الوداع جميعاً.

_لا تنسى راسلنا فور وصولك.

_هذا أكيد أبي أدعي لي يا أبي.

_ الله يوفقك وييسر دربك ويفتح أبواب الرزق أمامك.

ودعهم واتجه إلى الباخرة التي ستبحر به لأشهر إلى البرازيل، حيث هو لا يعلم مصيره هناك، وكيف سيكون الحال في أرضٍ لا يعرفُ بها أحداً سوى نفسه.

أبحرت السفينة وأخذت عرض البحر طريقاً لها، تحاكي أمواجه راجيةً الأمان، وطيور النورس تحلق مودعةً

الأصحاب، والشاطئ يغيبُ كما الشمس عند الغياب.

عاد الجميع إلى القرية، وكانت أم محمود ما تزال تنتظرهم، وحين رأتهم ركضت بسرعة إلى زوجها:

_هل سافر؟

_نعم لقد سافر أرجوك لا أريد دموعاً فهذا فألٌ سيء هيا امسحي دموعك ودعينا ندخل.

_سيكتب لنا رسالة لنطمئن عليه.

_لا تقلقي أوصيته أن يكاتبنا فور وصوله لكنه يحتاج لبعض الوقت فالطريق طويل ويحتاج لشهرين أو ثلاثة.

_لابد أنه سافر وهو غاضبٌ منا.

_لا تقولي هذا قد أوصاني أن أقول لك أنه لا أحد السبب.

دخل الجميع البيت وكان إبراهيم معهم، وحين حاول أن يعتذر ليعود إلى قريته، قالت له أم محمود:

_أبقى عندنا يا إبراهيم فأنت من رائحة محمود.

_شكراً يا خالتي حان وقت ذهابي لكن سأزوركم قريباً إن شاء الله.

اقترب من عليا مودعاً فصافحها بشدة، وعندما وصل إلى

الباب، قال لها:

_هل سمعت ما أوصاني محمود؟

_ماذا؟

_قال لي إن أحببتُ يوماً أن أخبر حبيبتي وألا أتأخر عليها لذا سأترك قلبي معك وحين أعود سأعرف ردك.

ارتبكت عليا.. واحمرت وجنتاها، لم تعرف كيف ترد عليه فغادر دون أن يسمع أي كلمةٍ منها.

دخلت عليا شاردة الذهن، وكأنها في حلم والفرحة تجعلها تطير عن الأرض دون شعور، فها هو يشعر بها ويحبها، وكان محمود قد انتبه لهما أثناء وجوده ويبدو عليه السرور.

فمن يوم أن رأته أحبت كل شيءٍ فيه، وسامته ولطفه وحديثه الدافئ، فالأمر محسوم بالنسبة لها ولا داعٍ للتفكير، فهي كانت تنتظرُ هذا القرار منه منذ البداية. كيف لا وهي لا تعرف لأي سبب احتفظت بمنديله الحريري المطرز، الذي جففت به دموعها أما الآن صارت تعرف الدافع لاحتفاظها به.

دخلت المنزل وعيناها تشعُ فرحاً، تكاد تريد الرقص والركض دون أن يوقفها أحد، فهي اليوم أسعد فتاةٍ على الأرض.

-١٦-

ها قد بدأت الرحلة، والميناء يلوح مودعاً جميع من على ظهر السفينة، ولكل مسافرٍ قصة بين حروفها غصة، لا تكفيها الصفحات المسطرة، هناك منهم من ترك أولاده مجبراً ومن هرب من غضب الفقر القاسي أملاً بمستقبلٍ أفضل، والخوف من المجهول يضني القلوب، والحزن يملئ الوجوه الشاحبة بالدموع المنهمرة.

وقف محمود على سطح السفينة ينظر نحو الشاطئ، الذي بدأ يبتعد عنه، حيث ترك هناك أجمل سنين حياته وأهله وأصدقائه والحب الضائع منه واختار التشرد في الظلام حيث لا يعرف متى يبصر النور وجهه.

بقي واقفاً هكذا حتى لم يعد يرى الشاطئ، وصار يتجول في أنحاء السفينة يتمعن كل ما فيها متعجباً من هذه السفينة، التي تبحر في عرض البحر لشهور دون أن تغرق، أو يصيبها

مكروه، يا لهذه الأعجوبة التي صنعها الإنسان بيديه، ثم نظر في الأفق البعيد، وتنهد بغصةٍ قاسية، و قال في نفسه:

مسافرٌ أنا على مركبٍ عتيق

يحملُ أسى السنين

يخبرني عن قصص المهاجرين

يخبرني عن عشاقٍ موجوعين

قضوا أيامهم حالمين

بعشٍ صغيرٍ يأوي المحبين

بلقمةِ عيشٍ هانئين

كم سافر عليكَ يا مركبَ تائهون

من وجع الأيام حائرون

من جَرحٍ عميقٍ ضائعين

من حبٍ قديمٍ متألمين

إلى كوخهم القديم.. يأخذهم الحنين

و على حبهم القديم.. نادمين

على صمتهم منكسرين

بحب صادقٍ متأملين

شكراً لك أيها المكب الحزين

لقد علمتني شيئاً عن حب السنين

وبعد نهاية قصصك مع العاشقين

حان دوري.. لأخبرك قصتي مع السنين

بعد ذلك دخل محمود غرفته ليرتاح قليلاً، كان في الغرفة سريران وخزانتين خشبيتين، إنها جميلة ولو أنها صغيرة بعض الشيء، فليست كغرفته في القرية، فتلك لها نافذتين واسعتين، أما هذه لا يوجد سوى نافذة واحدة صغيرة جداً، لا يرى من خلالها سوى البحر الأزرق، هنا لا يوجد بيت الأحبة ليراه متى شاء.

قاطع شرود محمود شابٌ ظريف، يبدو عليه الاحترام شعره أجعد كستنائي متوسط الطول، يكبر محمود بسنين قليلة، فقال لمحمود:

_مرحباً.

_أهلاً بك هل أنت معي في هذه الغرفة؟

_أجل هكذا على ما أعتقد، ما اسمك..؟

_أنا محمود.

_وأنا كمال.. من أين أنت تبدو لكنتك ريفية؟

_أجل فأنا أقطن في قريةٍ صغيرة تبعد عن العاصمة حوالي الساعتين وأنت؟

_أنا من العاصمة، تشرفت بمعرفتك يا محمود.

_وأنا كذلك.

_هل هذه المرة الأولى التي تسافر بها؟

_نعم وأنت؟

_ أنا لا قد سافرت منذ حوالي السنتين، وأتيت في إجازة لأرى أهلي وكما ترى أنا عائدٌ إلى العمل الآن، وأنت ماذا عنك إلى أين أنت ذاهب؟

_بصراحة لا أعرف بعد، ليس لي أحدٌ هناك سأبحث عن عمل وأبدأ حياتي.

_ما رأيك.. لي عمٌ هناك وهو بحاجة إلى عمال.

_وماذا يعمل؟

_لديه مطعم وأنا أعمل عنده فهو مقيمٌ هناك منذُ عشرين عاماً وله زوجة برازيلية وثلاث أولاد وحين كبر عمله طلبني لأذهب إليه فوافقت على الفكرة لأصنع لنفسي مستقبلاً جيداً وأعود إلى الوطن.

_لا أريـد أن أكـون عبئاً عليـك وقـد يكـون عمـك جلـب عمالاً في غيابك ولا يريد أحد الآن.

_سنذهب سوياً لعند عمـي وهنـاك يخلـق الله ما يـشاء مـاذا قلت؟

_حسناً أوافقك الرأي وشكراً لك.

_هل تعرف اللغة البرازيلية؟

_لا فأنا لم أتعلمها لكن لغتي الإنكليزية لا بأس بها.

_لا تحتاج لها سأعلمك خلال سفرنا بعـض الكلمـات مـا رأيك؟

_هذا أجمل شيء.

طال الحديث وطال معه السهر، وكان كمال يـشرح لمحمـود عـن العمـل، وكيفيـة إدارتـه وكيـف هـو الجـو هنـاك، وطبيعـة العمل والتنقل.

اطمئن محمود للعمل الجديد، وأحب هذا الشاب فهو طيبٌ وأمين ويحب أن يخدم أبناء الجالية العربية القادمون مـن الـشرق الأوسط.

بقيـا يتحـدثان إلى أن غفـت عيـونهم، وهمـا يخففـان عـن

بعضهم عناء الغربة والسفر، خاصةً كمال حين عرف قصة محمود وأعجبه تصرفه النبيل، فهو يظن أن محمود ضحى بمستقبله لأجل أهله وحالتهم، لم يعرف أنه لأجل الحب.

مضى الأسبوع الأول، والملل بدأ يتسرب إلى تفكير محمود بشكلٍ لاحظه كمال وصار يهدأ من قلقه وتعبه.

أما في بيت القرية، كان الوضع أصعب فخوف الوالدين على ابنهم المسافر عبر البحار، قاطعاً بلاداً كثيرة، ودائماً كانت أم محمود تسأل كم يوماً يحتاج للوصول، لماذا لم يراسلنا بعد، وهي في قلقٍ دائم، وأبو محمود يكابر ويحاول دائماً أن يظهر الرجل الذي لا يليق به البكاء أمام العائلة، كي لا يضعف صبرهم، أما عندما يذهب إلى الحقل يجلس فوق التراب، يبكي مثل الأطفال، وفي كل مرة تنظر فيها إلى عيناه تجد الحزن متربعٌ فيهما.

والفتاة المدللة الصغيرة تفتقد لوجود أخيها أكثر مما كانت تفتقده أيام الدراسة، وإبراهيم لم يأتي بعد ليعرف الجواب إن كانت موافقة أم لا.

وسلمى تندب حياتها وكأنها توقفت، أو أن ما هي مقبلة

عليه سيكون الموت، كانت تود لو أن محمود يأتي إليها ويمسك بيدها لتهرب معه بعيداً عن هذا الوجع.

وبعد حوالي عشرة أيام، كانت أم محمود جالسة في غرفة الجلوس تعمل بالتطريز، وعليا جالسة بجانبها تحاول تعلم شغل المطرزات، و كانت قد شكت في أناملها الكثير من الإبر.

صوت حافلة القرية قادم.. ارتجف قلب عليا وكأن أحدٌ ما جاء إليها، وقفت عند النافذة تنظر من القادم من المدينة، وإذا كان هناك أحدٌ قادمٌ إلى بيتهم.

ها هو إبراهيم ينزل من الحافلة متوجهاً نحو بيتهم ، حاملاً في عينيه ضحكةٌ تكاد تنطق الحروف لو أنها وجدتها، فاتجهت نحو الباب بسرعة لتستقبلهُ.

لم يقرع إبراهيم الباب بل فتح قبل حتى وصوله إلى عتبته، وكأن النور قد أطلق وهجه، عرف أن عليا لم ترفض دعواه إلى الحب.. إلى الدخول في عمق قلبه والاختباء من عيون البشر، فهي الحلم والقدر، ولم تذهب رسالته التي سهر طوال الليل يكتبها سدىً، فلو أنها رفضت طلبه لما كانت انتظرته عند الباب بهذه الابتسامة العريضة.

_مرحباً عليا.

_أهلاً بك يا إبراهيم.

_كيف أنت اليوم؟

_أنا جيدة كيف هكذا خطرنا على بالك؟

_تعرفين أنك دائماً في بالي ولا أنساك أبداً حتى أني كتبت هذه لك أقرئيها اليوم.

_شكراً لك.

_ألن ندخل أم سنبقى واقفين هنا؟

_بلى .. أنا آسفة تفضل.

دخل إبراهيم وسلم على أم محمود، وحين رأته حضنته وراحت تبكي بشدة، فذكرى محمود متعلقة بإبراهيم، صارت تشكي له الوجع الذي تعانيه لفراق ابنها، وهو يربت على كتفها ويحاول التخفيف من ألمها.

بقي إبراهيم وعليا على هذا الحال يتحادثان بالرسائل، ويعبرون عن حبهم الكبير واشتياقهم، وكان يأتي إلى بيتهم كل أسبوع.

وصلت السفينة إلى المكان المقصود، بعد أن عبرت من البحار الكثير والبلاد أكثر، أخيراً رست في مينائها الأخير، في إقليم بارا البرازيلي، نزل محمود وكمال من السفينة صار محمود ينظر حوله إلى الناس في هذا البلد، وقال لكمال:

_إنها البرازيل قد وصلنا أخيراً يا صديقي.

_نعم قد وصلنا.

_نهر الأمازون.. أين يقع قد سمعت عنه كثيراً وعن مصبه الهائل وصوت شلالاته.

_إن لهذا النهر قصة طويلة تعال أقولها لك بينما نصل إلى المدينة.

_ما سبب صوت شلالاته هل هو كما يقال بسبب ارتفاعه الكبير بسبب ارتفاعه؟

_يا صديقي.. لهذا النهر روايات كثيرة فيها الجميل وفيها المؤلم مثل الحب تماماً.

_إنك تجعلني أشتاق للذهاب إليه حتى قبل أن أضع أغراضي.

_إني مولعاً بهذا النهر وأنا متأكد أنك حين تزوره ستحبه كثيراً.

_أتمنى أن أراه قريباً.

_هيا لنركب الحافلة لا بد أن عمي في انتظارنا وهناك سأعرفك إلى بيت عمي إنهم يقطنون في مدينة بيلم وهي عاصمة إقليم بارا.

_هل هي بعيدة عن العاصمة.

_أجل إنها تبعد حوالي ٢١٢٠ كم أي ما يعادل خمسٌ وعشرين ساعة بالقطار أو السيارة.

_أنا كنت أسافر حوالي الساعتين بالحافلة من القرية إلى المدينة وكنت أشعر بأن بلادنا كبيرة جداً ما هذا؟

_إنها البرازيل وليست الشام.

ركب الشابان الحافلة المتجهة إلى مدينة بيلم، وصار كمال يعرف محمود إلى المناطق، ويحكي له عن عادات أهل البلد واحتفالاتهم.

كان أبو شريف عم كمال قد سمع بوصول الباخرة القادمة من الشرق عبر البحر المتوسط، فذهب إلى مكان توقف الحافلة ليستقبل ابن أخيه العائد من الوطن. وقف أمام متحف إميليو حيث تمر الحافلة من هناك.

قال كمال لمحمود وهما ينزلان من الحافلة :

_محمـود انظـر ذاك هـو عمـي الـذي حـدثتك عنـه تعـال سأعرفك عليه.

_أين هو لا أراه؟

_مرحباً عمي كيف حالك؟

_أهلاً بني الحمدُ لله على سلامتك قد سمعت بأن هناك باخرة قادمة من الشرق عبر المتوسط فعرفت أنه أنت لذا أتيت أقلك.

_دعني أعرفك أولاً هذا محمود من الشام إنه شابٌ لطيف التقيت به في الباخرة.

_أهلاً محمود كيف حالك يا بني؟

سر محمود من كمال وعمه الذي استقبله بطريقةٍ أفضل مما كان يتوقعه.

وهم في الطريق إلى البيت، كان أبو شريف يسأل كمال عن أحوال المدينة التي هجرها منذ زمن طويل، وكيف أصبحت، كانت الحكايات كثيرة من هنا وهناك، كان لقصصهم حسٌ جميل وبصمةُ حزنٍ في كل كلمة تقال، تراها على شفاههم

المشتاقة للوطن، والصابرة على مرِّ الغربة اللئيمة، حيث الصبر يشبه صبر رمال الصحراء على الشمس واشتياقه للمطر.

أخبر محمود أبو شريف أنه قادمٌ للعمل في البرازيل، وشرح كمال عن ظروف محمود التي يعرفها، فهو لم يقل له أنه ترك القرية من أجل الحب إنما بدافع العمل، نظر أبو شريف إلى محمود وقال له:

_لا تقلق يا بني فأنت هنا بين أهلك ستعمل معنا في المطعم وسوف يعلمك كمال تفاصيل العمل.

_شكراً لك يا عماه فأنا محظوظٌ لتعرفي بك وبكمال هذا فضلٌ لن أنساه طوال حياتي.

_لا يا بني فهذا أقلُ شيء يمكن أن يفعله الرجل لابن بلده فلو أنك كنت مكاني لفعلت أكثر من ذلك.

اقترب كمال من محمود، وقال له:

_هيا يا محمود علينا الذهاب إلى البيت لنرتاح وننام مبكراً فغداً لدينا يومٌ طويل في العمل أم أنك بدأت الكسل منذ الآن.

_لا يا كمال لن تذهب أنت ومحمود لأي مكان سنذهب لنأكل سوياً وأعرف محمود على الأولاد وزوجتي وبعد العشاء

تذهبون إلى البيت.

_حسناً كما تريد لكن عليَّ أولاً إرسال برقية إلى القرية لأخبر أهلي عن وصولي فأنت تعرف أن بالهم مشغولٌ عليّ فهذه أول مرة أسافر فيها خارج البلاد.

_غداً ستذهب أنت وكمال إلى البريد فهو بجانب المطعم.

ذهب الثلاثة إلى بيت أبو شريف بعد أن كانوا يرغبون بالذهاب إلى البيت الذي يسكنه كمال، وهو في نفس الشارع الذي فيه بيت أبو شريف ولا يبعد سوى شارعين عن المطعم.

حين وصلوا إلى البيت، عرفهم أبو شريف على عائلته المكونة من زوجته البرازيلية، وابنته ذات الثمانية عشر ربيعاً، وأبنائه الصبيان شريف وعمره أربعة عشر عاماً وكارلوس ذو الثانية عشر عاماً.

وعندما جهز العشاء اجتمع الجميع حول المائدة، وراحوا يأكلون ويتحدثون عن الحياة في البرازيل، وكيف أبو شريف أتى وتعرف بزوجته، وعانى الكثير حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، وبعد هذه السهرة الجميلة، عاد محمود وكمال إلى البيت ليرتاحا، وبدأا بترتيب أغرضهم وأمتعتهم والاستعداد للنوم.

جلس محمود في غرفته وبدأ يفكر كيف يكتب رسالته الأولى ومن أين يبدأ الكتابة، وعن من يسأل في البداية، كانت هذه أصعب نقطة بالنسبة إليه، ثم قرر البدء بالسؤال عن أبيه وأمه، وحاول جمع الكلمات المزوجة بالمشاعر الدافئة المشتاقة، التي تحمل بين طياتها الألم والحرمان من الحضن الحنون.

وبعد كتابة عدة أسطر مزقها، فهو لا يريد أن يشعر والديه من كلماته أنه غير سعيد بسفره، وبدء من جديد بكتابة رسالةٍ أخرى، بقي طوال الليل يكتب ويمزق الأوراق، إلى أن استقر أخيراً على الرسالة التي سيرسلها، فوضعها في ظرفٍ بريدي ونام منتظراً الصباح.

وفي الصباح قام محمود باكراً وأيقظ كمال ليذهبا إلى البريد، وسأله؟

_كم تحتاج الرسالة من الوقت حتى تصل؟

_لا أعرف لكن إذا أردت نستطيع إرسالها بالبريد المستعجل.

_حسناً هذا قد يكون أفضل.

أرسل محمود الرسالة إلى الأهل، وبعدها صار ينتظر منهم الرد ليعرف أخبارهم وماذا هم يفعلون في غيابه.

صار يعمل بجهدٍ كبير، وكأنه يشغل نفسه بالعمل بدلاً من التفكير بقلبه المحترق، حتى أنه يعمل لأوقاتٍ متأخرة، وحين يعود إلى المنزل لا يسعه سوى النوم من شدة التعب الذي يسيطر على جسده بلا رحمة.

-١٧-

الصيف وثماره الناضجة وشمسه الجميلة وصوت العصافير عند الصباح وأغنيات المزارعين الذاهبين للحقول أشبه بالحلم الخارج عن قواعد الحقيقة الموجودة.

اقترب موعد زفاف سلمى، وأم محمود تساعد بيت أبو أمين في التحضير للزفاف، وكل يوم بعد ذهاب الجميع من البيت تذهب مع عليا إلى بيت العروس للمساعدة في التحضير، وكانت كلما نظرت إلى سلمى تدمع عينيها حسرةً على ولدها الذي أحب هذه الفتاة ولم يكن له بها نصيب.

كانت عليا جالسة مع سلمى تتحدثان حين رأت ساعي البريد على باب بيتهم فوقفت بسرعة، وقالت:

_انظري يا سلمى إنه ساعي البريد لا بد أنها رسالة من محمود اعذريني يجب أن أذهب لأراه فلا يوجد أحد في البيت.

وذهبت مسرعة بينما وقفت سلمى تنظر إلى ذلك البيت، الذي تمنت لو أن الأيام تعود بها إلى هناك، ومحمود يعود من

بعد الغياب ولكن ما فات قد مات، ولا مجال للتغيير الآن، جلست تبكي وتفكر أنها عاهدت نفسها على عدم التفكير بمحمود، ولكن ليس باليد حيلة، ولا مكان تهرب إليه الآن، فكل شيء يذكرها به المكان والناس والأزهار كلهم يرفضون النسيان ولا حل سوى الرحيل من هذا المكان.

جاءت عليا إلى أمها بسرعة:

_أمي.. أمي .. إنها رسالة من محمود.

التفتت أمها بسرعة إليها والفرحة قد امتزجت بغصة البكاء والدموع تكوي الخد وتحرر التنهدات المحبوسة في الصدر.

_اذهبي بسرعة يا ابنتي إلى أبيك وحسان وأحضريهما بسرعة.

آهٍ يا بني كم اشتقتُ لكَ، قالتها وهي تضع يديها على صدرها، ورفعت رأسها إلى السماء تشكر الرب على كل شيء وتدعو أن يعود محمود من السفر بسرعة.

وصل أبو محمود وحسان من الحقل، وجلس الجميع ليقرؤوا الرسالة، كان أبو محمود يفرك بيديه، وأم محمود تبسمل ويديها على صدرها وعليا جالسة بقرب حسان.

أخذ حسان الرسالة ، فقالت له أمه :

_هيا عجل بقراءة الرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سلامي لكم جميعاً، لم أعرف كيف أكتب الرسالة ولكن حاولت جاهداً أن أخبركم فيها بكل التفاصيل التي جرت معي، منذ رحيلي.

والديَّ أرجو أن تكونا عفوتما عني لرحيلي دون رغبتكما، لكني لم استطع البقاء، وأنا هنا سعيدٌ جداً، قد تعرفت بشاب سوري اسمه كمال على ظهر الباخرة، وهو يعمل عند عمه هنا وأنا أعمل معهم في المطعم الذي يملكه أبو شريف عم كمال، وهم طيبون جداً، أنا أسكن مع كمال في البيت ذاته.

أبي كيف حالك وكيف العمل في الأرض أرجو أن لا تكون متعب، أخبرني كيف هو الموسم هذا العام هل هو جيد كما كنا متوقعين.

أمي الغالية اشتقت لك كثيراً ولأختي عليا وحسان ونهلة وزوجها وابنتها، كيف أنتم جميعاً ما الذي تفعلونه، وكيف أخبار القرية والجيران، أريد أن أسألكم عن إبراهيم إذا جاء أخبروه عني وطمأنوه أني بخير وبصحةٍ جيدة.

لقد اشتقت لكم وللقرية والنبع والورود في الحديقة.. كيف هي الورود يا أمي هل تعتنين بها جيداً.

إني أحتاج لدعواتكم لي ورضاكم عني، لأقوم بعملي على أكمل وجه عند هؤلاء الناس الطيبون لم أرى أناساً بهذا الخير.

وأخيراً راسلوني لأطمئن عليكم وأعرف أخباركم على عنواني.

ابنكم المحب محمود

١٩٥١/٧/٢٩ البرازيل / بارا / بيليم

انتهى حسان من قراءة الرسالة، والصمت حل على الجميع، كانوا فرحين بالأخبار التي جاءتهم من محمود، لكن الفرحة هي أن يكون معهم في البيت.

قالت أم محمود:

_يا إلهي ستة شهور.. ستة شهور وأنا انتظر منه رسالة الحمد لله على كل شيء أرجو أن أراهُ قريباً وعندها لن أدعه يسافر مرةً أخرى فهذا يكفي وعندما يعود سأزوجه الفتاة التي يريد ولكن متى سيأتي هذا اليوم يا ربي.

قال أبو محمود:

_اشكري الله يا امرأة أنه أطمئن بالنا على ولـدنا وهـو بخير وبصحةٍ جيدة ويعمل عند أناسٍ طيبون كما أنه مرتـاح هنـاك هيـه حـسان أحـضر الأوراق لنكتـب رسـالة لأخيـك وغـداً في الصباح تأخذها إلى البريد.

بدأ حسان بكتابة الرسالة، وأمه تلقنه الكلمات وأبيه وعليا وكل واحدٌ منهم يريده أن يكتب ما يشعر به، ويريد السلام عليه بطريقته، قالت أم محمود لحسان:

_اكتب له أني انتظره عند نهاية السنة كما وعدني وأنه لم يخلف وعداً لي يوماً وأخبره أيضاً أنني أريد تزويجه حين يأتي مباشرةً.

ختم حسان الرسالة، وفي اليوم التالي قام بإرسالها عبر البريد وأوصى الساعي الذي يأتي بالرسائل كل أسبوع إلى القرية بأن يجلب الرسائل القادمة إليهم بسرعة.

-١٨-

و بعد حوالي ثلاثة أيام جاء إبراهيم إلى بيت أبو محمود ومعه أناس من قريته، وحين طرق الباب فتحت عليا له الباب، عندها تفاجأت بالناس الذين معه، فقالت له:

_أهلاً إبراهيم أهلاً بالجميع تفضلوا بالدخول.

_هذا أبي يا عليا وهذه أمي وأعمامي ووجاهة من قريتنا

ارتبكت عليا ولم تعرف كيف تتصرف في هذا الظرف فنادت على والدتها.

_تفضلوا إن والدي عند جارنا سأناديه فوراً.. أمي لدينا ضيوف من قرية إبراهيم.

_حسناً نادي على والدك وأخبريه أن يأتي ومعه أبو أمين.

جاء إبراهيم ليطلب يد عليا رسمياً من أهلها، وأحضر معه أقاربه وبعض الرجال من قريته.

أتى أبو محمود ومعه أبو أمين ورحبوا بالضيوف ترحيباً حاراً وجلسوا يتسامرون ويتبادلون أخبار القرى والهموم

المشتركة، وكانت أم محمود وعليا وجارتهم أم أمين يتعاونون في تحضير طعام الغداء.

سر إبراهيم لسماعه أخبار محمود، وأخذ العنوان من أهل البيت ليتمكن من مراسلته ويطمأن عليه.

تنحنح والد إبراهيم ليبدأ الكلام، وقال:

_يا أبو محمود قد جئنا إليكم اليوم طالبين وأرجو أن لا تردونا خائبين.

_قل يا مختار والله يقدرنا على تلبية طلبكم.

_بعد إذن الموجودين.. جئنا اليوم لطلب يد ابنتك عليا لولدنا إبراهيم وأنا يشرفني أن تكون ابنتكم زوجةٌ لابني على سنة الله ورسوله.

_هذا شرفٌ لنا فأنتم عائلة محترمة وأصحابُ بيتٍ واسع وكريم ولكن أريد أن أشاور البنت أولاً فأنت تعرف القرار يعود لها وآمل خيراً إن شاء الله.

ذهب الضيوف وبقي أبو محمود مع زوجته وولديه حسان وعليا وأخبرهم عن سبب زيارة أهل إبراهيم لبيتهم.

سـرت أم محمـود للخـبر وأعلنـت موافقتهـا، فهـي تحـب إبراهيم كثيراً وخاصـةً أنـه صـديق محمـود المقـرب، وكانـت قـد لاحظت اهتمام عليا به، أما عليا فإنهـا تكـاد تطير مـن الفـرح فركـضت مـسرعة إلى سـلمى لتنقـل لهـا الخـبر، فقالـت لهـا سلمى:

_ألف مبروك هذا مـا كنـت تتمنينـه وقـد تحقـق الآن وأنـا في الأسبوع القادم عرسي ها نحـن يـا صـديقتي سـنفترق وكـلٍ منـا سيذهب في طريق أنا إلى المدينـة وأنـت إلى القريـة المجـاورة ولـن نرى بعضنا إلا في الصدفة أو المناسبات.

_لا تقولي هذا سنزور بعضنا لن نبقى طوال الوقت بعيدين عن بعض.

و تعانقـت الـصديقتان وبـدأتا بالبكـاء علـى القـدر الـذي سيفرقهما مع أنهما سعيدتان بما هما فيه.

و خلال أيام تمت الخطوبة رسمياً، وصار إبراهيم يأتي كـل يومين إلى بيت أبـو محمـود لـيرى عليـا ويعـرف أخبـار محمـود، وكتـب إليـه رسـالة أخـبره فيهـا أنـه عـزم علـى خطوبـة أختـه الصغيرة وأنه سـعيدٌ معهـا، وأخبره في الرسـالة أيـضاً أنـه وفـى

بالوعد الذي قطعه بأنه سيخبره حالما يقرر الخطوبة وباسم الفتاة التي يريدها.

كما أن زفاف سلمى كان في الفترة ذاتها، كان ذلك الصيف حافلاً في القرية بالأعراس والمناسبات السعيدة، فقد شهد عدداً كبيراً من الاحتفالات على غير المعتاد.

كانت أم محمود تتمنى لو أن محمود معها إلى جانب أخته في يوم خطوبتها، وكانت كثيراً ما تبكي أو تتحسر على غيابه وخاصة يوم زفاف سلمى، كان هذا حلم محمود ولكنه تحطم كلوحِ زجاجٍ سقط من أعلى الجبل ووصل إلى الأرض ليصبح رذاذاً.

لم يكن محمود من الشباب الذين يملون العمل، إنما كان مواظبا بشكل كبير أثار استغراب أبو شريف بنشاطه وهمته العالية ومثابرته، وكان يشعر بأن محمود لم يأتي من أجل العمل إنما جاء ليشغل باله عن سرٍ يخفيه في جوفه، وكان كلما حاول إعطائه إجازة يرفضها ويقول له أنا لست بحاجةٍ لها فليس هناك من أحد أذهب إليه أو أقضي العطلة معه.

أخبر أبو شريف كمال عن محمود وأنه إذا بقي هكذا سيقتل نفسه من كثرة العمل، فهذا شيءٌ لا يريده لشابٍ مثل محمود وخاصةً أنه أحبه جداً وكان يعامله مثل كمال تماماً.

ذهب كمال إلى محمود ليخبره أنه حصل على إجازة لكليهما:

_محمود قد أعطانا عمي إجازة اليوم وسنذهب سوياً لأريك الأمازون ما رأيك؟

_لا أستطيع الذهاب.

_لماذا هل من شيء؟

_لا لكن لدي عملٌ كثير ولا أريد التقصير، فما يقدمه لنا عمك هو كثير.

_ما بك يا رجل أرحم نفسك قليلاً إنها عطلةٌ واحدة فقط.

_ولماذا العطلة نحن في بلدٍ لا نعرفُ فيهِ أحد وأتينا للعمل.

_يوجد هنا جالية عربية كبيرة ستتعرف إليهم وسوف تحبهم إنهم يقومون بالزيارات المتكررة كل أسبوع ويجتمعون في المناسبات لتهنئة بعضهم هيا أرجوك.

_لا أريد يا كمال لا تحرج نفسك معي بإمكانك الذهاب متى شئت وأينما تريد لا تتقيد بي إن ظروفك مختلفة تماماً عن ظروفي.

لاحظ كمال أن لا فائدة من الحديث مع محمود، وهو رجلٌ عنيد صعبُ الإقناع، فماذا يفعل لإخراجه مما هو فيه إذا دعا أحد الأصدقاء إلى البيت ليسهروا معاً ولكن محمود يعمل بواردتين كاملتين، وما أن يصل البيت حتى ينام مباشرة ولا يستطيع محادثته سوى في العمل، فقرر قضاء عطلته مع بيت عمه أبو شريف.

كان كمال يجدُ أي وقت ليذهب لبيت عمه حتى يتقرب أكثر من ابنة عمه، مع أنه كان في البداية يكره تصرفاتها فالفرق بين التربية في الغرب والتربية في الشرق كبير، وهو الذي أتعبه في البداية إلى أن تعود عليه بعد قضاء سنتين في هذه البلاد.

و بعد مضي يومين كان هناك حفلة تقيمها الجالية العربية، فقرر كمال أن يأخذ محمود بأي طريقة، وفي النهار قال له أن هناك حفلة وسيذهبون قبل نهاية الدوام بساعة تقريباً.

في البداية حاول محمود الرفض، لكن كمال لم يترك له مجالٌ لذلك وشعر محمود بأن كمال بدأ ينزعجُ منه فقرر الذهاب.

أخبر كمال عمه أبو شريف بالحفلة وأنه سيأخذ محمود معه وأولاده، فقبل وقال له بأن يأخذ سيارته إلى الحفل لأنهم سيتأخرون في الليل.

كان محمود يفكر كيف سيذهب إلى الحفلة وهو غير راضٍ، خاصة أنه لم يتعلم اللغة جيداً بعد، كيف سيساير الوضع هناك، ظل هكذا إلى أن صار الموعد وجاء كمال مع أولاد عمه ليأخذوه معهم.

كانت الحفلة تقام في الهواء الطلق، تجتمع الجالية العربية مع عائلاتهم وأصدقائهم، وكثيراً ما كان يأتي من أهل المدينة لمشاركة المغتربين في الحفلة ويقضون وقتاً جميلاً ويغنون الأغاني العربية والبرازيلية بكل أنواعها.

كان يوضع الطعام العربي، والمشروب لم يكن عليه رقيب، فكلٍ يشرب على هواه، منهم من يشرب الخمر وآخرون يشربون العصير أو الشاي، ويرقصون بفرح تراهم

كفراشـات حقـلٍ تتنقـلُ مـن زهـرة إلى زهـرة، والغربـة تـصير نسيان.

هنـا في هـذا المكـان الوحيـد الـذي ينـسى فيـه الجميـع أنهـم غربـاء، وخاصـة أن مـن شـروط الحفـل الـتكلم باللغـة العربيـة فقط، ليشعروا أنهـم في الـوطن واليافطات أيـضاً الـتي ترحـب بالضيوف كتبت بالعربية والديكورات المقامة كلها عربيـة ترمـز إلى المدن الشامية واللبنانية كونـه أكثـر المغتربـين إمـا سـوريين أو لبنانيين.

كـان محمـود ملفتـاً للنظـر بالنـسبة للفتيـات، وكـان يـرفض دعواتهم للرقص بكـل أدب، ممـا أثـار فـضول ابنـة أبـو شـريف التي صارت تهتم به وتحـاول التقـرب منـه، لكنـه لم يعرهـا أي اهتمام فاقتربت منه:

_مرحباً محمود ما رأيك بالرقص معي؟

_شكراً آمال لكني أفضل البقاء هنـا فأنـا لا أعـرف الـرقص أعتذر منك.

نظر محمود إلى كمال فوجده ينظر إلى آمال نظرة فيها نوعٌ من الغيرة، كأنه يخبأ شيءٌ لها في داخله مما جعله يرفض عرضها أكثر، أما هي اغتاظت منه وعادت إلى حلقة الرقص.

اقترب كمال من محمود ومعه بعض الشباب ليعرفهم به، سلموا على بعضهم وجلسوا يتحادثون ويتبادلون الأخبار.

عاد محمود وكمال إلى البيت بعد نهاية الحفل ن وكان كمال مسروراً من تصرف محمود مع ابنة عمه، أما محمود كان شارداً بالقرية وأخبارها، وفي كل لحظة من الليلة يفكر بسلمى وحين دخل غرفته بدل ملابسه ونام على السرير وهو يتمتم.

_ماذا أفعل بك.. كيف أخرجك من قلبي وأنساك، كلما قلت نسيتك تزوريني في الأحلام أو تخطفين دقات قلبي وتحرقين صدري بالأشواق، أي ثورة يحتاجها قلبي ليطفئ نارك المستعرة، وأي حلمٍ أنا فيهِ..؟ متى سينتهي ويزولُ إلى الأبد ولا يبقي في جوفي أي أثر، تعبت يا حبيبتي ولماذا أناديك حبيبتي أو اشتاق لك وأنت في دنيا غير دنيتي.

بقي محمود يفكر هكذا طويلاً إلى أن استقر النوم على جفنيه وفرد جناحيه فوق عينيه ونام.

كانت الصعوبة التي يعانيها محمود في التأقلم مع هذا البلد كبيرة، خاصة العادات والتقاليد المختلفة عن التي عاشها في قريته.

مرت بضعة أيام وساعي البريد يسأل عن محمود في المطعم، إنها رسالة الأهل من القرية وصلت أخيراً، فتحها بسرعة متلهفاً ليعرف ما بداخلها، وصار يقبلها من كل اتجاه وكأنها أمه أو أبيه أو أحد إخوته.

قرأ محمود ما بداخلها وعرف حال أهله وأخبارهم وفرح لأخبار المواسم في القرية، لكنه غص بعض الشيء حين ذكرته أمه بالوعد الذي قطعه لها قبل سفره، الوعد بأنه لن يغيب أكثر من سنةٍ واحدة، كان يشعر بأنه يجب أن يعود للبيت ولكن كلما فكر بالعودة يكون العمل سبب تراجعه.

وبعد حوالي عشرة أيام وصلت رسالة أخرى إلى محمود، وهذه المرة من صديقه إبراهيم وكتب فيها:

السلام عليك يا أعز الناس ألف تحية شوقٍ وإكبار..

هذه أول مرة أكتب فيها رسالة، ولكني أحاول أن ألملم الكلمات من هنا وهناك عسا أن تصلك كلماتي وسلامي وأشواقي.

أنا يا صديقي بخير، وعائلتك جميعهم بخير قد تخرجت وبدأت أتدرب عند محامٍ جيد في المدينة، وأنا أتابع دراسة الماجستير وقد قررت أن أتطوع في الجيش بعد إنهاء دراستي، والخبر الأهم يا صديقي كما وعدتك أني سأخبرك بأول دقة قلب يطلقها قلبي وأنا أحببت أن أكون صهرك وتقدمت لخطبة عليا أرجو أن لا تمانع وأن تبارك لنا الخطوبة، ليتك هنا لأسمعها منك مباشرةً دون حاجة لانتظار الرسائل.

أما عليا فهي حزينة جداً لعدم وجودك بجانبها في هذا الوقت، فكما قالت لي أنها كانت تريد حضنك الدافئ، أنا لم أتوقع أنها متعلقة بك لهذا الحد، شيءٌ آخر سيكون الزفاف في الصيف القادم لتكون أنت بيننا وتبارك لنا.

صديقي محمود دعني أكلمك بجدية أكثر، ماذا تنتظر أردت الابتعاد قليلاً وحان وقت العودة، إن سلمى قد تزوجت وذهبت مع زوجها إلى المدينة، لذا لا أريدك أن تطيل السفر أكثر فأنت تعرف الألم الذي تركت والديك فيه.

وأخاك حسان لا يستطيع ملئ مكانك وأمك كلما رأتني تنوح بالبكاء أرجوك لا تطل غيابك.

صديقك المخلص إبراهيم

سرَّ محمود كثيراً بالرسالة وخاصةً خبر خطوبة إبراهيم من عليا، ولكنه انزعج كثيراً لأخبار سلمى، وفهم من رسالة إبراهيم أنه كان يقطع له الأمل بالتفكير بها، وأن ما سافر لأجله قد رحل ولن يراه إذا عاد إلى القرية.

أعاد محمود ترتيب الرسالة ووضعها في جيبه وعاد للعمل، ولكن جسده كان يرتجفُ غضباً وقهراً على ما جرى له.

عاد محمود إلى البيت بعد إنهاء عمله وصار يتخبط بشكلٍ كبير فوق سريره على الذكرى التي تأبى الخروج من ذاكرته والحب الذي تعمق جداً في عروقه الملتهبة والصمت المخيف كصمت القبور مخيم على سريره بشكلٍ مريب.

صار يتمتم في سريره بصوتٍ خافتٍ غاضب:

_ تزوجتِ.. أرجو أن تكوني سعيدة الآن.. ويهزُ برأسه ثم يقول.. حسناً سنرى إن كان يحبك بقدر ما أحببتك أنا..

ولا أحد يعرفُ ما يجول في خاطر الآخر، لم يدرك محمود العذاب الذي عاشته سلمى ليلة زفافها، وكم كان الألمُ كبيراً وكيف كانت ترتجف ليس خوفاً ولا خجلاً إنما حزناً على

الذي جرى لها، فهي تعطي حياتها وجسدها لرجلٍ آخر غير الذي أحبته، وتمنت لو تكون في كل لحظةٍ من عمرها بين يديهِ.

أحبته بشغفٍ.. بجنونٍ.. لم يعرف الحبَ مثلهُ تائهٌ.. كان لها كالماء والشمس.. كالهواء والمطر.. كالليل والنهار.. وفي لحظةٍ صار دخان، أهذا هو القدر أم أن قدرنا هذا نصنعه بأيدينا.

وفي اليوم التالي بينما محمود في المطعم يعمل دخلت آمال ابنة أبو شريف واتجهت نحو محمود:

_مرحباً محمود.

_أهلاً كيف أستطيعُ خدمتك.. كمال ليس هنا.

_ومن قال أني أريد كمال.

_ماذا تريدين إذاً؟

_جئت أدعوك إلى سهرةٍ خاصة عند إحدى صديقاتي هل ترافقني؟

_شكراً لك لكن عندي عمل ولا أستطيع الذهاب.

_لا مشكلة سأكلم والدي ليعطيك إذناً ولن يرد طلبي.

_عذراً منك اذهبي مع كمال أنا لا أريد الذهاب.

غضبت آمال من رد محمود البارد على دعوتها، فقالت له بنبرة حادة:

_لا أريد الذهاب مع كمال أريد الذهاب معك أنت ألا تفهم؟

_مرةً أخرى إن شاء الله.

وأدار محمود ظهره لها مما زاد بغضبها وحدة النبرة المشتعلة غيظاً منه.

_يا لك من تافهٍ مغرور، لستُ أدري لما تعاملني هكذا بهذا الجفاء لم يرفض أحدٌ طلبي قبلك وستندم على ذلك.

أكمل محمود عمله ولم يهتم لما قالته، انتظرها حتى غادرت وهي غاضبة جداً منه وتتمتم بكلماتٍ بذيئة لم يسبق أن سمعها من فتاة قبل.

آمال المعروفة بالجمال الذي لا يقاوم، ذات البشرة البرونزية والقامة المشوقة والجسم المرسوم والعينان الواسعتين، هذا الجمال الممزوج بين العرق البرازيلي والعربي الشرقي، وهل هناك أجمل من الشرق.

بعد رحيل آمال ذهب محمود إلى البريد ليرسل رسالة إلى أهله وصديقه إبراهيم ويبارك خطوبة عليا ويخبرهم كم هو سعيد، سألهم فيها عن موعد الزفاف حتى إذا تمكن سيأتي ويحضر بينهم.

لم يعرف محمود الأمل الذي عاشته أمه حين وصلتها البرقية والفرحة التي لا تفارق ثغرها.

حين قرأت أم محمود الرسالة صارت تزغرد، كأن فرحاً قد قام في القرية، وصارت تحضر لقدوم ولدها وأخذت تخبر الأصدقاء والجيران.. إن محمود قادم من السفر هكذا كانت تقولها كلما رأت أحداً.

قال لها أبو محمود:

_على رسلك يا امرأة قال إذا استطاع الحضور.

_لا إن محمود قد وعدني أنه لن يغيب أكثر من سنة وها قد مضى على غيابه حوالي السنة والشهرين.

وحين جاء إبراهيم مع أهله لتحديد يوم الزفاف، رفضت أم محمود وأجلته إلى أن يحضر محمود، فسألها أبو محمود:

_لما أخرت الجماعة هكذا قد يحل الشتاء ويتأخرون في الزفاف.

_ماذا تريدني أن أفعل أزوج عليا بغياب محمود هذا لن يحصل.

_وما أدراك أن محمود سيأتي أو أنه سيصله الخبر في الوقت المناسب قد يتأخر.

_لا سيأتي ثم إنك تقول هذا وكأنك تعرف شيئاً ولا تريد إخباري به ما الذي يجعلك متأكداً أنه لن يأتي هل تعرف شيئاً ولا تريد إخباري به.

_يا أم محمود كوني منطقية قليلاً الوقت الذي تحتاجه الرسالة كي تصل وبينما هو يوضب أغراضه سيكون الوقت قد مضى.

_لا أعرف إن لم يأتي سأكون فعلت ما عليَّ فعله ولن أعترض مرةً أخرى.

لاقى أبو محمود أنه لا فائدة من محاولة إقناع زوجته، وأراد أن يبقيها على أمل فهو أيضاً يريد عودة محمود بقدرها.

لكن الأيام والشهور مضت ولم يأتي محمود، حينها صار الأمل يتبدد شيئاً فشيئاً، ولا خبر عن عودة محمود إلى أن وصلت منه رسالة يعتذر فيها ويطلب السماح من والديه وأخته وصديقه وأخبرهم أنه طرأ عليه عمل مما لم يسمح له بالسفر.

قد كان محمود متأثراً ومتألماً جداً لعدم مقدرته الحضور، لأن أبو شريف مرض مرضاً شديداً ولازم الفراش، مما جعله يلغي فكرة السفر.

-١٩-

في هذا الوقت قام أبو شريف بتوكيل محمود وكمال بأعمال المطعم كلها، من حسابات وأشغال فقد كان يثق بهم كثيراً لما رآه منهم من إخلاص وجهد في العمل، ولهذا قرر محمود عدم تركه في هذه الظروف، وانشغل أكثر حين قرر تطوير المطعم فطرح الفكرة بدايةً على كمال، ثم ذهبا سويةً إلى أبو شريف ليخبراه بما هم عازمان عليه، وبعد أن وافق بدؤوا بتجهيز المطعم وأدخلوا عليه أكلات شرقية شامية ولبنانية وحلبية، وأخذت ضجة كبيرة في المنطقة وصار المطعم يعمل أكثر، وزادت عليه الطلبات بعد أن اشتهر بالمأكولات الشرقية، خاصة الكبة الحلبية المشوية والكبة النيئة، وهكذا استدعاهم ذلك لفتح عدة فروع وخلال هاتين السنتين كان المطعم في أوج ازدهاره.

ولم ينقطع محمود عن أخبار القرية، بل بقي على تواصل دائم، كما كانت محاولات آمال بالتقرب من منه فاشلة، فلم تستطع لفت انتباهه نحوها أو ناحية أي فتاةٍ أخرى.

في هذه الفترة رزق صديقه إبراهيم وأخته عليا بفتاةٍ جميلة وسمياها سوسن، كانوا فرحين جداً بها، مضت السنوات الخمس ولم يشعر بها سوى المغترب وأهله، وفي أحد الأيام استدعى أبو شريف كمال ومحمود إلى البيت بعد أن اشتد به المرض، ولم يعد قادراً الذهاب إلى المطعم، فلبيا الدعوة وذهبا إليه، كان مستلقياً في فراشه ويبدو على وجهه الشاحب التعب الكبير.

_أهلاً يا أولاد تعالا اجلسا بجانبي.

_فقال له محمود..: خيراً يا عمي ماذا هناك قد شغلت بالنا بطلبنا على عجل.

_ أجل يا أولادي هناك ما يجب إطلاعكم عليه فأنا قد كبرت وسرقتني السنين وأشعر بدنو أجلي وأريد أن أطمئن عليكما وعلى أولادي.

فقاطعه كمال بسرعة:

_بعد عمرٍ طويل يا عماه فنحن تحت أمرك.

كان أبو شريف يتكلم بصعوبة من شدة المرض، حتى أنه كان يلهث.

_اسمعا ما سأقوله، لكما أنا لن أنسَ فضلكما على عملي والأمانة التي عملتم بها، ولولاكما لما وصل المطعم إلى ما هو عليه اليوم، لذلك قررت منحكما نصف المطعم، الربع لك يا كمال والربع الآخر لمحمود، ويبقى النصف الباقي لعائلتي لكن بشرط أن يبقى العمل كما هو ومثل العادة، كل سنة تأتيان بالحسابات لمراجعتها وتوزيع الحصص والأرباح، فأنتم تعلمون أن أولادي يدرسون وهم لا يريدون العمل في المطعم، ولكن إذا أرادوا يوماً العمل فيه فليكن فأنتم تعلمون أن شريف في كلية الهندسة ولن يعمل في المطعم، أما كارلوس فهو يجتهد ويريد أن يصبح طبيباً، لذلك أتمنى منكما تقديم الدعم لهما.

فقاطعه كمال:

_يا عمي إن أولادك هم إخوتي ومن لحمي ودمي وأنت بإذن الله ستراهم في أعلى المستويات ولن يقدم الدعم لهم أحد غيرك وستزوجهم وترى أطفالهم.

_لا تقاطعني أرجوك فأنا بالكاد ألتقطُ أنفاسي هناك شيءٌ آخر آمال فتاةٌ جميلة وأنا أخافُ عليها وكما رأيت الحياةُ هنا مختلفة تماماً عن بلدنا وعاداتنا وقد بذلت جهدي لأربيها تربية شرقية كما ربونا أهلنا من قبل ولكن أمها من هذه البلد ولا فائدة من التشدد لأنها تلقت التربية منها وأنا كنت مشغولاً ببناء عملي لذلك أرجوك يا كمال أنت الشخص الوحيد الذي يجعلني أطمئن عليها فلا تتركها وحيدة.

انتهى أبو شريف من كلامه، فتركه الشابان ليرتاح وخرجا من عنده عائدين إلى البيت.

نادى أبو شريف على عائلته وأخبرهم بما دار بينه وبين كمال ومحمود من اتفاق، وأنه أعطاهم نصف المطعم لأنه توسع بفضلهم وبهذا يضمن استمرارهم بالعمل بجهدٍ أكبر فلم يعارضوا قراره.

وفي الطريق قال محمود لكمال:

_أرأيت يا كمال إن عمك قد حملك مسؤولية ابنته وفهمت من حديثه أنه يريدك أن تتزوجها.

_أجل يا محمود رأيت هذا في كلامه لكني أراها ميالةٌ إليك.

_إذا كنت تلمح لشيء فأنت لا تعرف ما سبب سفري وبعدي عن أهلي فأنا كنت أحب فتاةٍ في القرية لكنها تزوجت من ابن عمها وهذا دفعني إلى الجنون ولم أعد أستطيع البقاء لذلك قررت السفر بعيداً وقلبي مقفلٌ بإحكام ولن تطاله أي فتاةٍ أخرى وأنا لا أريد أن تظلم معي الفتاة التي أتزوجها.

_إذاً هذا هو السر الذي كنت تخفيه طوال هذه السنوات ولم تبح لي به لذلك لن ننام اليوم حتى تحكي لي القصة كاملة أما بالنسبة لابنة عمي سأهتم بها لا تقلق وشكراً لك لأنك أرحت قلبي.

_آه يا كمال بعد عدة أيام يكون قد أصبح لي في هذه البلد خمسُ سنوات قد أخذتنا الغربة وسرقت منا أيامنا الجميلة في القرية كنت وعدت أمي بأني لن أغيب أكثر من سنة واحدة وأنا الذي لم أنكث وعداً قطعته لأمي يوماً.

_لا بأس عليك يا محمود كم مرةً قلت لك خذ إجازة واذهب إلى أهلك لكنك رفضت ما رأيك بإجازة تذهب تطمئن على أهلك وتعود بعد ذلك.

_الآن وفي هـذا الوقـت بعـد مـرض عمـك يبـدو أن الغيبـة ستطول أكثر سأنتظر بينما يشفى وعندها سأعود للوطن.

كانـت تلـك الـسنوات الخمـس بالنـسبة لأم محمـود كالمشي فـوق الـشوك حـافي القـدمين، والجلـوس علـى الجمـر عـاري الردفين، والانتظار أقسى من العلقم، والولد الغائـب كـم هـو لذيذ طعم سماع صوته.

-٢٠-

نهلة أنجبت ولـدان غـير ابنتهـا الأولى، وأصـبح لعليـا صـبيٌّ آخر وأسمته محمود، وسلمى صار عندها ولدان أما محمـود لم يأتي، وحسان يدرس في مدرسـة القريـة المجـاورة، وكلمـا قـال أبـو محمـود لزوجتـهِ أريـد تـزويج حـسان تـرفض وتجيبـه عنـدما يعود محمود أزوجهما معاً.

ومضت سنةٌ أخرى توفي خلالهـا أبـو شـريف، وسـنةٌ تلتهـا سـنة تـزوج فيهـا كمـال مـن آمـال، ووسـع الـشابان عملـهم وافتتحـوا عـدة فـروع للمطعـم في مـدن الولايـة الأخـرى، وافتتحوا فرعاً في العاصمة برازيليا.

تخرج شريف مهندساً وكارلوس أصبح طبيباً وحقق ما كان يسعى إليه أما محمـود وكمـال بقيـا علـى وعـدهم وفي كـل عـام يأتون بالحسابات إلى عائلة أبو شريف.

أما في القريـة كانـت أم محمـود قـد أصـابها الـضجر، فنـادت على حسان:

_حسان تعال إلي واجلب معك ورقة وقلم أريد أن أبعث برسالة إلى أخيك قد طفح الكيل عشر سنين وأنا أنتظر.

_حاضر أمي سآتي حالاً ماذا أكتب؟

فقالت بانفعالٍ شديد وحرقةٍ في القلب لا تداويها الكلمات.

_أكتب ما أقوله لك..

بني روحي ومهجة قلبي أسئل الله عسى أن تكون بخير وعافية.

أنا مشغولة البال عليك كثيراً، لقد طال غيابك أكثر مما يجب ولم أعد أستطيع تحمل ذلك وأنا خائفة أن تحين منيتي قبل أن أراك وأشبع عيوني برؤيتك.

أنا أعرفك حنوناً ومرضياً وتحبني ولا أعرفُ أن قلبك قاسٍ هكذا مثل حجر الصوان، أرجوك قد ذاب قلبي واحترق وهد غيابك عافيتي وما عدت أطيق فراقك.

ولدي العزيز خيالك لا يفارقني لحظة، وأنا أتألم كل يومٍ أكثر واشتاق لك واشتهي ضمك إلى صدري ومعانقتك وشم رائحتك وأكحل جفنايَّ بطلتك الحلوة، أرحمني أرجوك أريد الدخول إلى غرفتك ومسح شعرك وأتنفس بأنفاسك، كما أني أريدُ أن أفرح بك قبل موتي، جميع أصدقائك الذين من عمرك قد صار لديهم أولاد، أما أنت ماذا..؟ وعدتني بسنة

واحـدة وتعـود إلى حـضني ولكنـك لم تـأتي، رأيـت الكـثير مـن الفتيات وكلما رأيت إحداهن أقول هذه تلاءم محمود.

ألم تكفي هذه السنين لتعود، أم أنك تقصد عذابي من هذا، وعدتني ووعد الحر دين كما يقال كانت سنة ما الذي أخرك وأنـا أنتظـرك أم أن الغربـة جعلتـك تنـسانا الغربـةُ غـدارة بـني أرجوك أرجع بأسرع وقت أرجوك.

أمك المشتاقة

أنهى حسان كتابة الرسالة وأرسلها إلى محمود الذي صار يبكي كالثكلى من شدة تأثره بكلمات أمه، لكن ما العمل إنه مشغولٌ جداً بالمطعم وخاصةً أن أولاد أبو شريف قد باعوهم حصصهم بعد وفاة أمهم، واتجهوا نحو العمل بشهاداتهم وتابعوا عملهم الخاص.

-٢١-

ازدهر عمل محمود كثيراً وصار يرسل لأبيه أموالاً كثيرة ليشتري بها أراضٍ وعقارات ويشرح في رسائله عن العمل وازدهاره وتوسعه الكبير موضحاً سبب عدم عودته.

كما أن حسان في هذا الوقت كان قد علق في حب مدرسةٍ معه في المدرسة ، وأراد أن يتزوجها ، أخبر محمود أن أمه لا تريد تزويجه إلى أن يأتي لتفرح بهما سوياً.

كان حسان غاضباً من أمه فالفتاة لا تستطيع أن تقول لوالديها أنها لا تريد هذا ولا ذاك.

فقال لها حسان :

_سأخبر والدي أني لا أستطيع انتظار محمود لا تقلقي.

_لكن يا حسان إن أبي يضغط عليَّ كثيراً يجب عليك أن تعجل.

حين عاد حسان إلى البيت أخبر أبيه ليقنع والدته وأنه لا جدوى من انتظار محمود.

وافق والده وأقنع أم محمود بذلك وأقام له زفافاً جميلاً وأعلم محمود بتفاصيل الزفاف وكأنه بينهم.

-٢٢-

بينما محمود يعمل في المطعم وها هو المذيع يقول عن حربٍ في الشرق الأوسط ، فانقبض قلبه بشدة ونظر ناحية التلفاز ليسمع الخبر جيداً.

كان المذيع يحكي عن شن إسرائيل حرباً شاملة ، وأنها بدأت باحتلال مناطق جديدة من سورية وفلسطين ومصر.

خلال هذه الفترة كان حسان قد أخذ إلى الجيش وإبراهيم أيضاً كونه متطوع ، صار محمود يغلي بشدة خائف من أي خبرٍ سيء.

وبعد قليل دخل كمال بسرعة ينادي محمود :

_هيه.. محمود هل سمعت الخبر.

_نعم ما الذي يجري هناك.

_لا أدري يتحدثون عن حربٍ كبيرة وعلى عدة جبهات.

_كيف سنعرف الأوضاع هناك.

كانت هذه الحرب قاسية جداً على البلدان العربية فقد خسرتها أيضاً واحتلت إسرائيل مناطق واسعة.

أثناء بدء العمليات قامت القوة الجوية الإسرائيلية بضرب المطارات والقواعد الجوية العربية وتحطيم طائراتها، وكذلك استفادت من الضربة الجوية التي قامت بها القوات الجوية الأمريكية والبريطانية اللتان كانتا متمركزتان بقاعدتي هويلز والعدم بليبيا والتي كان من أهم نتائجها تحييد سلاح الجو المصري والذي كان بإمكانه تقديم الدعم والغطاء الجوى للقوات المصرية أثناء العمليات العسكرية أو حتى أثناء الانسحاب، ثم استثمرت تحرك الوحدات العربية في عملية إعادة التنظيم الخاصة بالقيادة العربية المشتركة وشنت هجوماً بالدروع باستخدام أسلوب الحرب الخاطفة على الضفة الغربية التي كانت تابعة للأردن وعلى مرتفعات الجولان السورية وقطاع غزة الذي كان تابعاً لمصر ولسيناء كل على انفراد حيث استعملت الأسلحة المحرمة دولياً كالنابالم وقذائف البازوكا.

حدث ارتباك لدى القوات المصرية بسبب قرار الانسحاب العشوائي الخاطئ الذي أصدره القائد العام للقوات المسلحة

المصرية المشير عبد الحكيم عامر، في الوقت الذي قررت فيه الوحدات السورية إعادة تنظيمها للرد على المعركة أو الضربة الأولى.إلا أن مجلس الأمن سارع بإصدار قرار وقف إطلاق النار ففسح ذلك المجال أمام القوات الإسرائيلية بتنظيم وحداتها فيما يسمى عسكرياً استثمار الفوز. شارك الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف بقوات عسكرية لدعم الجبهة على الرغم من القوات الكبيرة الرابضة في المفرق في الأردن إلا أن الدعم الأمريكي والبريطاني والفرنسي المعلن بالتدخل في حالة رد الدول العربية على العدوان ما لم تستجيب لقرار مجلس الأمن الدولي ٢٤٢، الأمر الذي افشل مخطط الهجوم المرتد العربي وجعل إسرائيل بواقع المنتصر.

تألم محمود وكمال كثيراً لهذا الخبر، حتى الجالية العربية هناك فصاروا ينظمون المظاهرات ويطلقون التنديدات بما فعلته إسرائيل ولكن دون جدوى.

انتهت الحرب وبقيت آلامها موجودة فقد أخذت الكثيرين معها وجلبت العار للدول العربية.

-٢٣-

لكن السنوات تمضي وتأخذ معها الكثير من الأشخاص حتى من دون حروب، وتأتي بالوليد الجديد وكان من بين الذين أخذتهم جارهم أبو أمين والد سلمى، حيث بقيت أم أمين وحيدة فأخذها أمين إلى بيته لتعيش معه أفضل من بقائها وحيدة، مما جعل أم محمود كثيرة الهم فقد كانت أم أمين مفرج همومها وصديقتها المقربة جداً.

وصلت خطوط الهاتف إلى القرية وصار بإمكان أي شخص أن يحضر هاتفاً، وأول من أحضر الهاتف أبو محمود ليكلم ولده مباشرةً دون حاجة لانتظار رسائله وكان محمود كثيراً ما يسألهم عن خطوط الهاتف ويحثهم على السعي لتوصيل واحد، لكن الخطوط لم تكن بهذه الجودة فكان الشخص يحتاج لمحاولاتٍ عدة للحصول على مكالمة، وإن حصل عليها بالكاد يسمع صوت المتصل.

أخبر أبو محمود برسالته الأخيرة لابنه عن وصول الهاتف إلى المنزل وأرسل له الرقم ليكلمهم.

غمرت السعادة محمود عند سماعه الخبر وانتظر الوقت المناسب ليكلم فيه البيت ليكون الجميع ويستطيع مكالمتهم.

الساعة الثانية عشر بعد منتصف الليل، الهاتف يرن في بيت أبو محمود، قام الجميع على صوته مذعورين، فقال أبو محمود:

_ خيراً إن شاء الله من يتصل بهذا الوقت.

رفع السماعة بسرعة وقلبه مقبوض، وأم محمود تراقبه هي وحسان، خائفين من أن يكون أصاب بناتهم خطباً ما ولم يقل سوى كلمة نعم، حتى صارت يداه ترتجف واختنق صوته بغصة الدموع المنهمرة، عندما قال له عامل المقسم تكلم مع البرازيل صرخ:

_يا إلهي البرازيل محمود.

سمعت أم محمود اسم ابنها فركضت مسرعةً إليه، وقالت:

_ماذا تقول أهذا محمود حقاً أعطني الهاتف هاته أرجوك.

_على رسلك ما الذي جرى لك.

_أريد سماع صوته أرجوك.

_بني حبيبي محمود هل تسمعني أنا أمك.

_أعطني الهاتف قليلاً لأكلمه وأسلم عليه.

أخذ أبو محمود السماعة من يدها :

_صباح الخير يا أبي كيف حالك أنا محمود.

_محمود كيف حالك بني ماذا عن أخبارك وصحتك آه محمود إنه أنت لست أصدق ما أسمع كم اشتقت لسماع صوتك.

_أنا بخير أبي كيف أحوالكم جميعاً أنا مشتاقٌ لكم كثيراً.

أخذت أم محمود السماعة فلم تعد تستطيع الصبر ارتبكت وصار صوتها يخرج متألماً مبحوحاً..

_محمود ابني الحبيب كيف حالك؟

كانت طريقة كلام أمه وبكائها تجعله يبكي ، لكنه تمالك نفسه واستجمع قواه.

_أمي هذا أنا أجل أرجوك لا تبكي أريد سماع صوتك.

لكن أم محمود كانت كلماتها تخرج متلعثمة ، بالكاد تفهم مع أنها حاولت تمالك أعصابها ، وقالت له :

_أرجوك يا بني أرجع الذي عندنا يكفينا جميعاً ويكفي أولادك أنت وأخوتك ماذا تنتظر هل تريدني أن أموت حسرةً عليك.

كانت للكلمات والحروف قدسية تغرز مخالبها في الجسد، وتحفر فيه جروحٌ صعبةُ النسيان، وكأنها نقشت في الصخور فلا المطر يمحوها ولا الرياح تَحِتُها.

بعد إقفال السماعة كانت حال العائلة صعبةٌ للغاية، ولم يكن محمود أفضل حالاً من أمه وأبيه، فجلس يشهق ويبكي وبقي حتى الصباح يفكر بكلمات والديه وخاصةً أمه لقد تأثر كثيراً به.

علمت عليا ونهلة بأن محمود كلم والديهما وأنه سيكلمهم يوم الجمعة حين يكون الجميع في البيت.

وفي اليوم التالي لاحظ كمال سوء حالة محمود وأنه على غير عادته ومزاجه معكر، فسأله:

_ما بك يا محمود حالك اليوم لا يعجبني هل أنت مريض؟

_لا يا صاحبي أنا بخير لكني قلقٌ بعض الشيء على أهلي لقد كلمتهم البارحة وتأثرت جداً بما قالته أمي.

_إذاً لماذا لا تزورهم؟

_و العمل ماذا أفعل به؟

_ماذا بك يا رجل العمل.. العمل لن ينتهي العمل إذا ذهبت لزيارة أهلك فأنا هنا أذهب أنت هذه السنة وعندما تعود سأذهب أنا كما أني أيضاً اشتقت لرائحة الشام وياسمينها.

عاد محمود إلى البيت وهو يفكر بما قاله كمال فوجده منطقياً، فقال في نفسه:

_سأذهب إلى الوطن لثلاثة شهور وأعود، فالطائرة أسرع بكثير من السفينة ولن أحتاج لوقتٍ طويل كما كان عندما أتيت، آه عشرين عاماً في الغربة كم هذا صعب كيف تمضي الأيام.

في اليوم التالي أخبر محمود كمال أنه عزم على السفر، وبدأ بترتيب أموره واتصل بأبيه وأخبره أنه قادم، وخلال أسابيع قليلة سيكون عندهم ريثما يرتب أمور عمله وسفره.

فرحت أم محمود بالخبر كثيراً، هذه المرة عودة محمود أكيدة وليس كما في كل مرة، صارت تخبر الأقارب والأصدقاء وبناتها كانت فرحتها كبيرة، وأخذت تعيد طلاء المنزل وتملئ البيت بالأزهار والحديقة بالورود، وكأن عودة محمود أعادت لها صباها وأصبحت عودة محمود حديث القرية والجميع بانتظار هذا الحدث حتى جاء الاتصال المبشر بيوم الوصول.

اجتمع أهالي القرية في بيت أبو محمود من الصباح الباكر لاستقبال ولده الغائب بعد عشرين عاماً من الانتظار والغياب عن الدار.

أم محمود وبناتها يعملون بجهد كبير في المطبخ وتساعدهم بعض النسوة من القرية، والأغاني تملئ الثغور وكأنه زفافٌ كبير وأكثر.

أما أبو محمود وحسان وأصهرتهم ذهبوا لإحضار محمود من المطار وذهب معهم بعض الرجال من القرية.

وحين وصل محمود إلى الباب الأخير ورأى الناس المجتمعة لاستقباله ركض بسرعة ناحية أبيه، حضنه بقوة وصار يقبل يديه ورأسه، ثم حسان وإبراهيم والجميع، وهم في الطريق

إلى القرية كان ينظر حوله إلى كل شيء، والحال التي أصبحت عليه البلاد في غيابه الطويل.

ساعاتٌ قليلة وصوت بوق السيارات يعلن الوصول، وأصبح أهالي القرية ينثرون الورود والأرز على السيارات احتفالا بعودة محمود، فركضت أم محمود والبنات لاستقباله وركض معهم جميع من في البيت، ها هو محمود بعد طول غياب قد عاد.

صارت النساء تزغرد والرجال تطلق الأعيرة النارية، ركضت أم محمود وحضنت ولدها وصارت تشم رائحته وتبكي دموع الفرح بعودته، وتقبل وجنتيه وصدره وتغمره ولا تريد إفلاته حتى أن جميع من كان واقفاً من رجالٍ ونساء أبكاهم هذا المنظر، كان مشهداً مؤثراً جداً وخاصةً حين جثا محمود وقبل قدمي أمه وصرخ سامحيني يا أمي.

كانت أمه وكأنها تراه للمرة الأولى، كان الشيب بدأ يغزو شعره وملامحه تغيرت، كيف لا وقد تجاوز عمره الأربعين لقد تغير ونضج أكثر من ذي قبل كان شاباً يافعاً حين سافر أما الآن صار رجلاً.

بعد أمه حضن إخوته وسلم على جميع من في الدار واحداً تلو الأخر، منهم من تعرف عليه مباشرة وآخرون تعرف عليهم أو تذكرهم بصعوبة فالأطفال صاروا رجالاً ولديهم عائلة وأولاد.

تناول أهل القرية الغداء مع محمود وكان كلما مر أحدٌ لا يعرفه صغيراً كان أم كبير يسأل عنه، وعن اسمهم منهم من يكونوا أولاد إخوته البنات أو أولاد حسان.

كان ذاك اليوم طويلاً ومرهقاً للجميع، وبعد رحيل المحبين والمستقبلين جلس محمود بجانب أمه ونام على حجرها، وصارت هي تمسح شعره وتقبله غير مصدقة أنه عاد أخيراً، فقال لها:

_ياه.. يا أمي قد تغيرت وابيض شعرك لم أتخيل صورتك على هذا النحو كنت دائماً أراك في مخيلتي صبية وجميلة.

_ألم أعد جميلة وكيف لا يا بني قد كبر الهم في غيابك والآن أذهب للنوم أنا متأكدة أنك متعب من السفر إن غرفتك جاهزة وأنا لم أغير فيها أي شيء منذ رحيلك.

دخل محمود غرفته فوجد كل شيء على حاله حتى الأقلام والكتب فوق الطاولة لم يتغير مكانها، ونظر إلى الجدار فقرأ تاريخ رحيله ١٩٥١/٤/١١ فأمسك بالقلم وكتب تحته ١٩٧١/٢/٢٧ وبدأ يقبل أغراضه التي تركها، ثم استلقى على سريره وغط في نومٍ عميق إلى الصباح.

أفاقت أم محمود في الصباح نشطة، حيوية الحركة ن كان صباحاً جميلاً ومميزاً له رونقه وسحره الخاص، وأيقظت البنات وأولادهم وحسان وزوجته وجهزت القهوة ونادت على محمود، استيقظ محمود واتجه إلى الشرفة حيث كان الجميع بانتظاره وصبح عليهم وقبلهم، وقال لهم:

_يا الله ما أجمل الصباح معكم وما ألذ فنجان القهوة هذا أتعرفون لم أتذوق مثله منذ عشرين عاماً وأكثر

وصار يتعرف على الأحفاد والأولاد وأزواج البنات، وهو غير مصدق كيف كبرت العائلة، فهذه ابنة نهلة التي تركها تحبو تزوجت وصار عندها أولاد، وأخيه حسان تركه مراهقاً طائشاً قد تزوج وكبر أولاده، وعليا وصديقه إبراهيم وصار يسأل عن أهل القرية الواحد تلو الآخر.

كل شيء تغير في القرية، الكهرباء صارت متوفرة بشكلٍ أفضل والمياه لم تعد تجلب من النبع وخطوط الهاتف صارت في كل بيت تقريباً.

بعد هذا الصباح الجميل بكل ما فيه من عذوبة والأحاديث التي لا تنتهي، مر الوقت دون أن يشعروا، فقالت أم محمود:

_هيا بنا نجهز الطعام قبل أن يبدأ الضيوف بالتوافد علينا للسلام على محمود اذهبي أنت يا عليا واسقي الورود في الحديقة واتبعيني يا نهلة إلى المطبخ.

فقال لها محمود:

_أمي دعيني أنا أسقي الورود قد اشتقت للحديقة والورود فيها كثيراً.

نزل محمود إلى الحديقة وتناول خرطوم المياه وصار يرش الورود بالماء، عندها التفت لبيت أبو أمين فرأى أبوابه مقفلة والورود فيه يابسة، كأنه بيت أشباح مهجور، شعر حينها بحرقةٍ قوية في صدره وقشعريرة في جسده والذاكرة عادت به إلى الوراء، كيف كان هذا المنزل يغلي بالحركة في الماضي والورود الجميلة، وكانت سلمى أحلاها، وتذكر كيف كانت

تملـئ البيـت بالحركـة والجمـال، كانـت تكفيـه منهـا نظـرة أو ابتسامة صغيرة ليعيش يومه سعيداً، فقال في نفسه:

_ترى ما الـذي حصل لـك يا بيت لما أنت باهـتٌ وذابـلٌ كالورود بـلا مـاء، مهجـورٌ.. سـكنت فيـك الأشـباح، لا حيـاة فيك سوى بعـض الـذكريات، يا إلهـي كـم أنـت تـشبه قلبـي، خالٍ مثله تماماً لم أشعر بدقاتـه منـذ زمـنٍ طويـل، أيـن أنـت يـا سلمى هل يحق لي مناداتك بالحبيبة..

آه.. مــاذا أسميــك حبيبــة..؟ أم أن الأيــام تمــنعني الآن لم أستطع نسيانك ولا لحظة لما القدرُ قاسٍ هكذا لما فرقنا الزمن.

سالت دمعةٌ على خد محمود، فقال:

جيتها عَ فرس وبقلبي مية عنِّي

صوتها بدينتي همس.. لا تغيب عني

بنتظرك طول ما فيِّ نفس

وروحي اسمك بتغني

وصلت ع آخر نفس وشوفة حبيبي متمني

كبست بيميني الجرس ووقفت مستني

تاري شريطة مرس ما وصلت الرني

وَقفت قلبي حرس ينتظر عني

ورجعت مبتلي بخرس فاقد أمانيي

البيت بيتهم...

بس جاوبني الصدى الحبايب رحلوا عني

ثم تنهد تنهيدةً خانقة، وقال:

_كم كنت أود الاطمئنان عليك لكني خفت من فضيحة السؤال وشرود الإحساس فأنت لم تبارحي أفكاري يوماً وضعتك في قلبي وأقفلت الأبواب ولن يدخل أحدٌ بعدك.

كان محمود ينظر إلى ذاك البيت ويحاكي الزمن معاتباً ويلومه على ما جرى له وكأن الزمن يسمعه.

بعد قليل أحس محمود بأن هناك من يربت على كتفه، نظر للوراء فقال له إبراهيم:

_آسف يا صديقي على ما يبدو قطعت لك شرودك لقد ندهت عليك عدة مرات لكنك لم تنتبه.

_أنا كنت في عالمٍ آخر خارج هذا الزمان كنت هناك حيث يصير للمطر معنى وللقمر جمال هناك كل شيءٍ مختلف.

_أرجوك يا محمود تريث قليلاً جعلتني أشعر وكأنني أرى أمامي شاعراً من القدماء ما بك ألم تنسى الماضي بعد.

_أتدري كنت أخاف دائماً من الوقوف هنا طوال السنين الماضية كنت أفكر يا ترى إذا عدت هل سأتألم أو أتذكر الحب الضائع هذا، وها أنا اليوم واقفٌ هنا أنظر إلى الماضي الذي لم يفارقني.

_لقد راقبتك منذ أن أردت سقاية الورود عيناك لم تغب لحظة عن بيتهم فتساءلت إن لم تنسى بعد هذا الغياب.

_ليتني نسيت يا إبراهيم، لكنت في أحسن حال وعلى الأقل ارتحت، أخبرني هل تعرف شيئاً عنها عن أخبارها.

_إن كل ما أعرفه هو من عليا فهم يتحدثون عبر الهاتف أحياناً أو يلتقون هنا عندما كانت أمها تعيش في البيت لديها خمسة أولاد وزوجها محترم ومركزه جيد وهي تحبه كثيراً حسب كلام عليا أنها سعيدة.

_هذا جيد الحمدُ لله أنها سعيدة.

_أنساها يا محمود حان وقت النسيان يا صديقي هي لها حياتها وأنت لك حياتك كفى الآن مراهقة.

_طبعاً إنها ذكرى من الماضي الجميل لا بد أن أنساها ...

قالها محمود بتنهيدةٍ شديدة وكأنه يريد البكاء أو الصراخ لكنه خجل من وجود إبراهيم معه.

_هل أقول لك شيئاً؟

_ماذاظ

_منذ وصولك انتبهت لك تنظر إلى البيت وكنت أتوقع أنك ستسألني عنها.

_صدقني يا إبراهيم في كل لحظة كنت أريد السؤال عنها لكني أمسك نفسي بصعوبة والآن أرجوك ليبقى هذا الحديث بيننا.

_ماذا دهاك يا صاحبي أم أنك نسيت حقاً من أنا.

_لا لم أنسَ فأنت الوحيد الذي يعرف كل شيءٍ عني ولكن لا أريد أن تعرف عليا هيا الآن لندخل.

أنهى محمود سقاية الحديقة وتوجه هو وإبراهيم إلى الداخل وقضوا النهار يستقبلون الضيوف القادمين.

انتهى اليوم الثاني وما زال بيت أبو محمود يعج بالضيوف والأصهرة والأحفاد، وكلما فرغ البيت من الضيوف يجلس الجميع حول محمود يتسامرون ويطرحون الأسئلة عن البرازيل

وأعماله هناك وهو بدوره يسمع أخبارهم والأشياء التي حدثت في غيابه.

في إحدى الجلسات قاطعت أم محمود الحديث، وقالت:

_اسمعوا يا بنات الآن على كل واحدة منكم تعرف فتاة جميلة ومناسبة لمحمود أن تخبرنا عنها لأن المهم الآن هو زواج محمود.

صرخ الجميع فرحاً وصفقوا لها أما محمود تفاجأ بالخبر، وقال لأمه:

_أمي أنا لا أفكر بالموضوع الآن وفي هذه الزيارة هكذا بسرعة أتيت لأراكم فقط وفي الزيارة القادمة أتزوج.

_لا ستتزوج قبل سفرك في المرة الأولى غبت عشرين عاماً والله أعلم كم ستطول الزيارة الثانية.

_هذه المرة لن أتأخر سأصفي أعمالي هناك وأعود مباشرةً.

انسحب محمود دون أن يسمع جواباً من أمه أو حتى يترك لها مجالاً للرد هارباً من كلماتها، فقالت لبناتها:

_لا تستمعوا لما قاله أريد له عروساً وعليكم أن تجدوها بسرعة.

سمع محمود ما قالته أمه لأخوته لكنه دخل غرفته واستلقى على سريره وأخذ يفكر بما قالته والدته ونام دون أن يشعر.

ذهب إبراهيم إلى غرفة محمود ليتحدث معه دق الباب دقة خفيفة وفتحه، فوجده مستلقياً في فراشه بثيابه فاقترب منه ودغدغه من أسفل قدميه ليوقظه.

عندها انتفض جسد محمود بقوة وفتح عينيه بدهشة ونادى..سلمى..

لكنه وجد إبراهيم واقفاً أمامه مستغرباً ردة فعله هذه، فقال له:

_ألم تجد طريقة أخرى توقظني بها.

_لو أني أعرف أن ردة فعلك ستكون هكذا ما فعلتها ولكن لما انفعلت هكذا.

_لا أعرف شعرت بالدغدغة تصل إلى قلبي وللوهلة الأولى ظننت أنها سلمى..سكت محمود قليلاً وتنهد بعمق ثم قال لإبراهيم:

_لا عليك لا بد أنه حلم.

تأثر إبراهيم بطريقة كلام محمود وأحس أن محمود ما يزال يحب سلمى وهو متأثر جداً بها ، فقال له :

_أخشى يا صديقي عليك من هذا الحب الذي لم تحاول نسيانه بعد فكر قليلاً بما قالته أمك لن ينسيك حب سلمى سوى حبٌ آخر وامرأة جديدة تدخل حياتك.

_لقد حاولت يا إبراهيم حاولت كثيراً وعرفت الكثير من النساء في الغربة ، ولكن لم تستطع أي منهن أن تدخل قلبي أو تحرك مشاعري ، أشعر وكأني فقدت كل إحساسٍ في داخلي وصرت كشجرة يابسة تتحطم فوقها الرياح.

_ هذا لا يجوز ، حان الوقت لتفرح قلب أمك التي صبرت على غيابك وكن منطقياً هذه المرة عدت وأمك هنا لكن في المرة القادمة من يدري فكلنا إلى زوال.

_ما هذا الكلام الذي تقوله يا رجل.

_محمود عليك أن تكون رجلاً مسؤولاً أكثر وتُفرح قلب أمك المسكينة وتكون لديك عائلة وهذا السر أبقيه في قلبك واحتفظ به لنفسك واعتبره ذكرى جميلة مرت بحياتك.

بقي إبراهيم ومحمود يتحدثان حتى ساعةٍ متأخرة، وكان إبراهيم يأمل أن يستطيع إقناع محمود بفكرة الزواج والاستقرار عوضاً عن السفر والغربة، وبعد جدالٍ طويل تركه ليفكر بكلامهِ وذهب.

جلس محمود يفكر بكل كلمة قالها إبراهيم، وكلمات أمه فلابد له من أن يسعدها ولو قليلاً بعد هذا الغياب الطويل فقرر أن ينهي أعماله في البرازيل ثم يعود بأسرع وقت ويتزوج كما تريد أمه.

في الصباح نادى محمود على والدته وأخبرها بما قرر فرفضت أمه الفكرة من أساسها وبشكل غاضب، وقالت له:

_اسمع لن تغادر هذا البلد إلا وعروسك معك شئت أم أبيت إلا إذا أردت أن أغضب عليك إلى الأبد أو أنك متزوج من امرأة أجنبية ولا تريد إخبارنا بذلك.

_لا ما بك انفعلت هكذا لست متزوجاً ولا حتى مرتبط بأي فتاة فأنا لا أريد إغضابك ولأثبت لك ذلك افعلي ما تشائين أنا رهن إشارتك.

_حسناً ما هي مواصفات العروس أو كيف تريدها؟

_لا يوجد لا مواصفات ولا شروط اختاري أنت العروس وأنا أتزوج المهم أن تعجبك أنت.

_الله يرضى عليك يا ابني وإن شاء الله سأجد لك عروساً تسعدك.

وأصبح الشغل الشاغل لأم محمود وبناتها عروس محمود، وصارت كل واحدة تعرف عروساً مناسبة لمحمود تدل أمه عليها.

وأخيراً وقع الخيار على فتاةٍ جذابة سمراء الوجه، والمهم أنها أعجبت أم محمود، وهي لائقة بولدها، وقد أحبتها منذ البداية مع أنها صغيرة بالسن لكنها سرعان ما تدخل القلب.

العروس صغيرة ومحمود تجاوز الأربعين، ولكن سمعته الطيبة وجاذبيته المثيرة تجعل أي فتاةٍ ترضى به فهو الرجل الثري المغترب وأي فتاة غبية سترفضه.

فرح الجميع بالعروس الجميلة، أما محمود كان كل شيء بالنسبة له وكأنه واجبٌ عليه فقط لإسعاد والدته ليس أكثر.

بدأت مراسم الخطوبة ووافقت العروس وصاروا يجهزون لحفل الزفاف بسرعة لأن محمود سيسافر ولم يبقى الكثير من الوقت وصار الجميع منهمكٌ بتحضيرات الزفاف.

ذهبت العائلة والأخوات وأزواجهن لتحديد يوم الزفاف وكان بعد أسبوعٍ واحد فقط ، وفي طريق العودة تأبط إبراهيم محمود وقال له :

_هل أعجبتك العروس يا محمود.

_لا بأس بها إنها قريبة من القلب وجذابة جداً والمهم أنها من عائلة محترمة وذات سمعةٍ طيبة.

_آمل أن تنسيك الماضي وتسعدك ويجب عليك أنت أيضاً إسعادها.

_سواءٌ نسيت أم لا سأكون مخلصاً لها ولبيتي.

_أنا متأكدٌ من ذلك ولا أشك بكلامك اسمع يا محمود الحياة الزوجية استقرار والتزام وإنشاء عائلة شيءٌ جميل والحياة فيها تشبه أوتار العود والأنامل حين تتناغم وتتفق تُخرجُ أنغامٌ ولا أجمل والحب لا تقلق بشأنه سيأتي مع العشرة الطيبة.

_شكراً لك يا إبراهيم كلامك يريحني كثيراً لعل الله يجعلني زوجاً جيداً وأباً صالحاً إن لم يكن من أجل أحد فهو لأجل هذه الإنسانة التي وهبتني حياتها.

كانت فرحة الجميع لا توصف، وصلوا إلى البيت وبدأ كلُ واحدٍ يطرحُ فكرة عن الحفل، وفي اليوم التالي بدؤوا بتعليق الزينات وحبال الأضواء الملونة والزغاريد تملأ البيت وكأن العرس بدأ بلحظته.

كانت دموع الفرح لا تفارق عيون أم محمود ولا أبو محمود، قد نالوا الفرحة التي يريدونها ها هو ولدهم يفرحون به ويرون عروسه، أقيم الفرح وكان كل شيء من أفضله، ولم يبقى أحدٌ من رجال وشباب القرية إلا وشارك حتى أنهم جعلوا محمود يغني لهم الدلعونا كما كان في الماضي.

و بعد انتهاء حفل الزفاف الذي صار حديث القرية والقرى المجاورة لما فيه من كرمٍ وسخاء، قضى محمود وعروسه منى بقية الإجازة في القرية.

كان محمود سعيداً جداً مع عروسه لما وجده منها من أنوثةٍ وحنان ودفء وكانت دائماً تجعله يبتسم أحس بقربها من منه.

انتهت إجازة محمود وحان وقت العودة إلى العمل وصار يحضر أوراق زوجته للسفر، وعندها قالت أم محمود لمنى أن تحاول إقناع محمود بالعودة وترك العمل في الغربة في أقرب وقت وهم سوف يحضرون لهم البيت.

سافر محمود مع زوجته بعد أن اتفق مع أبيه وأخيه حسان على مكان تعمير البيت وأعطاهم المخططات التي يريدها.

-٢٤-

وصل البرازيل وبدأ أعماله بنشاط وشغفٍ أكثر، وعاش مع زوجته بهدوءٍ واحترام، كان لطيفاً معها وكانت بدورها تتفانى في إسعاده وأكثر شيءٍ أسعده حين أخبرته بحملها، كان معيناً لها أيضاً وأحضر من تساعدها كي لا تتعب، حتى أن آمال ابنةُ أبو شريف عاملتها معاملة الابنة، فقد أحبتها كثيراً وبقيت بجانبها حتى موعد ولادتها.

خرجت الممرضة من غرفة التوليد وأخبرت محمود أنه رزق بفتاةٍ جميلة تشبه القمر، فدخل بسرعة إلى غرفة زوجته ليطمئن عليها وعلى ابنته الصغيرة، اقترب من زوجته وقبل جبينها وهنئها بالسلامة وطلب من الممرضة إحضار ابنته ليراها.

وحين حملها بين ذراعيه أحس بحنانٍ يفيضُ من داخله، عندها فقط شعر بقدسية الشعور الأبوي.

أحس بالحياة وجمالها وهذا النور الذي ينبثق منها، وكأن الحياة لا تبدأ مشوارها إلا عند وجود الضنى، والحب الأبدي لا يولد إلا عندما يخرج هذا الكائن الصغير من الجسد، ويجعل للحياة طعمٌ مختلف.

جعلته هذه الفتاة يسمعُ دقات قلبه من جديد بعد أن توقف لزمنٍ طويل، إنها تشبه الملائكة سبحان الخالق العظيم، قالها في نفسه وهو يبتسم بطريقةٍ لم تعتد منى أن رأته يبتسم هكذا، فقاطعت له تأمله وسألته:

_ماذا سنسمي الطفلة يا محمود..؟

نظر محمود إلى الفتاة بشغف وضمها إلى صدره.

_سنسميها سلمى.

_ألا ترى أنه اسمٌ قديم بعض الشيء.

_اسمحي لي بهذا الاسم فقط فأنا أحبه كثيراً وباقي الأولاد أطلقي عليهم ما تشائين من الأسماء.

بعد ولادة سلمى صار محمود يمضي أوقاتٍ أطول في البيت، حتى منى لاحظت أنه تغير وصار قريباً منها أكثر من ذي قبل.

أخبر أهله في القرية وفرحوا كثيراً بالخبر وصاروا يستقبلوا المهنئين من الأقارب والأصدقاء وأقاموا المباركات على شرفها.

كان محمود يعمل بجهد مع شريكه كمال لتوسيع عملهم، بعد مضي حوالي السنة كانت الأعمال في ازدهارٍ أكبر ويتوسع أكثر.

-٢٥-

شـهدت هـذه الحقبـة تـوترٌ شـديد علـى الجبهـة الـسورية الإسـرائيلية ، حيـث بـدأ الجـيش باسـتدعاء الاحتيـاط بـشكلٍ مكثف وعلى غير عادته ولا أحد يعرف السبب.

في صباح الواحد والعشرون من أيلـول كـان بـاب بيـت أبـو محمود يطرق.

خرجـت أم محمـود لـترى مـن علـى البـاب فوجـدت شـرطياً واقفاً ويحمل أوراقاً كثيرة في يديه ، فقالت له :

_تفضل.

_مرحباً سيدتي.. معي بلاغ لابنك حسان هل هو موجود؟

_لا إنه في المدرسة ماذا هناك؟

_أريد منك أن تعطيه هذا التبليغ وأخبريه أن يلتحق مباشرة بالجيش.

_و لكن لم تقل لي لماذا؟

_صدقيني لا أعرف هكذا وصلتنا الأوامر ويجب عليه الحضور غداً وإلا سيعاقب.

_حسناً كما تريد سأخبره.

_إذا سمحت وقعي هنا على أنك استلمت التبليغ.

دخلت أم محمود البيت وقلبها مقبوض خائفة، وحين عاد زوجها من الحقل أخبرته بالتبليغ والحديث الذي دار مع الشرطي.

قلق الجميع في البيت من هذا الخبر، وخاصة أن معظم شباب القرية قد استدعاهم الجيش وبصورة مستعجلة.

في اليوم التالي ذهب حسان وبعض من شباب القرية إلى شعبة التجنيد لمعرفة ما يحدث، فأخبروهم بأن عليهم الالتحاق فوراً بقطعهم العسكرية دون تأجيل.

عاد الشباب إلى بيوتهم لتوضيب أغراضهم وإخبار الأهل.

وبعد مرور عدة أيام ظهر الرئيس السوري آنذاك حافظ الأسد يلقي خطاب بدء الحرب على إسرائيل.

بدأت الحرب في يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ الموافق ليوم ١٠ رمضان ١٣٩٣ هـ) بهجوم مفاجئ من قبل الجيش المصري

والجيش السوري على القوات الإسرائيلية التي كانت مرابطة في سيناء وهضبة الجولان.

وقف النار في ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣، وقد هدفت مصر وسورية إلى استرداد شبه جزيرة سيناء والجولان التي سبق أن احتلتهما إسرائيل. انتهت الحرب رسمياً بالتوقيع على اتفاقية فك الاشتباك في ٣١ مايو ١٩٧٤ حيث وافقت إسرائيل على إعادة مدينة القنيطرة لسوريا وضفة قناة السويس الشرقية لمصر مقابل إبعاد القوات المصرية والسورية من خط الهدنة وتأسيس قوة خاصة للأمم المتحدة لمراقبة تحقيق الاتفاقية.

بعد تحرير مدينة القنيطرة السورية وشبه جزيرة سيناء المصرية توقفت الحرب واحتفل الشعب العربي بانتصاره على إسرائيل.

حتى المغتربين العرب في البرازيل كانوا يتابعون أحداث الحرب يوماً بيوم وفرحوا جداً بالأخبار وصار كل واحدٍ منهم يتصل بأهله لمعرفة الأخبار والاطمئنان على الأخوة والأصدقاء.

اتصل محمود بأهله ليطمأن على صهره إبراهيم وأخيه حسان، فأخبروه أن حسان أصيب بجروحٍ طفيفة وإبراهيم أصيب برصاصة في قدمه وهما بخير.

بقي محمود في الغربة يعمل بجهد متزايد وصار شغله الشاغل تأمين مستقبل أولاده

خلال فترة إقامته هناك صار حبه لمنى أكبر وبدأ يعتاد على وجودها معه في كل خطوة وفي كل عمل حتى صار يشعر باشتياق يغزو جسده إذا تأخر في العمل.

وبعد حوالي السنة رزق محمود بطفلٍ آخر وسماه جميل على اسم والده وفي السنة التالية رزق بطفل آخر وسماه وجدي.

-٢٦-

قرار العودة للوطن

قرر كمال الذهاب في إجازة إلى الأهل، فقد اشتاق لهم وكان يريد تعريف أولاده بأهله في الشام، فصار محمود كثير الانشغال عن البيت بسبب ضغط العمل عليه وغياب كمال.

وبعد عودة كمال مع عائلته إلى البرازيل زاره محمود مع زوجته للسلام عليه بعد عودته من الوطن، فقد أخذ كمال أولاده معهُ ليعرفهم بمدينته ومسقط رأسه وليتعرفوا على أقاربهم هناك، فهو لم يعود إلى بلده منذ قدومه مع محمود، وكان قد أنجب ثلاثة أولاد أيضاً ابنه البكر وعمره ثمانية عشر عاماً وابنته الأصغر في السادسة عشر وابنته الصغيرة في الرابعة عشر.

وشرح لمحمود كيف كانت إجازته، وكيف أن أولاده استغربوا كل شيء هناك ولم يعجبهم الجو أبداً وخاصةً بناته قد تغيرت عليهم الحياة كثيراً، فقال لمحمود:

_أتعرف الغلطة الكبيرة التي وقعنا فيها أننا جعلنا الغربة والعمل يأخذاننا من وطننا وأهلنا، تصور أن أولادي كانوا غرباء بين أهلهم.

_لماذا ألم يحبوا أقاربهم هناك؟

_على العكس لقد ذهبوا من هنا وهم غير مصدقين متى يرونهم وكانوا مسرورين جداً في البداية لكن تصرفاتهم وخاصةً البنات وحريتهم الزائدة التي تعودوا عليها هنا كانت محط انتقاد الأهل هناك مما جعلهم يتذمرون كثيراً فالتربية هنا تختلف عن هناك كما تعرف.

_الحق عليك أنت فأنت الرجل وأنت تربيت تربية شرقية وكان بإمكانك تربيتهم كما أنت تربيت.

_أولادك الآن ما زالوا صغاراً أرني كلامك هذا حين يكبرون ويصبح لهم رأيهم ولا تنسَ تأثير الأصدقاء والمجتمع والمدارس ماذا ستفعل؟

_أنت محقٌ في هذا.

_كلما انتقدت تصرف لابنتي تبدأ بالضحك، وتناقشني بأمورٍ الفتاةُ في وطننا لا تتلفظُ بها حتى أمام والدتها، وأنا الآن

واقعٌ في حيرة إن ذهبت لاستقر في بلدي لـن يقبـل الأولاد وإن بقيت هنا أكون خسرت أهلي.

عـاد محمـود إلى البيـت وهـو يفكـر بمـا قالـه كمـال، ومـاذا سيحـصل لأولاده وهـو لا يريـد لهـم هـذه التربيـة وخاصـةً سلمى، إن هذا يشعره بالقلق ولا يريد أن يعاني مـع أولاده مـا عاناه كمال وأولاده، لذلك قرر في تلك الليلة تـصفية أعمالـه في أقرب وقت والعودة إلى الوطن.

في اليوم التالي أخبر كمـال بمـا يريـد، ولم يعارضـه في ذلـك فهو يتمنى لو يستطيع المضي مثله.

عــاد محمــود إلى الــوطن بعــد غيــابٍ دام حــوالي الــست سنوات، وكان الأهل فرحين جداً وخاصةً أنه لن يسافر أبـداً، وكانت فرحتهم الأكبر بالأحفاد.

بدأ بأعمالٍ جديدة ومـشاريعٍ ضـخمة ومنهـا مطعمـه الكـبير في المدينة وتأقلم مع الوضع الجديد.

والـداه قـد كـبرا في الـسن ولم يتركـا البيـت أبـداً، فـالجميع يزورهم فيه وهو صار بيـت العائلـة الـتي أصـبحت أكـبر بكـثير من ذي قبل، فقد كبر الأحفاد وعاد من كان غائباً.

علـم محمـود أن صـهره وصـديقه إبـراهيم في المستـشفى العسكري وأنه سيجري عمل جراحي.

أخـذ زوجتـه وقـصد المدينـة ليطمـأن عليـه، وهنـاك دخـل غرفته وكان فيها سريران واحد لإبراهيم والثاني لمريضٍ آخر.

جلس محمود مع أخته وزوجها وزوجته يتبادلون الأحاديث ولم يـشعروا بمـرور الوقـت إلا حـين دخـل الممـرض وأخـبرهم بانتهاء أوقـات الزيـارات وأن علـيهم المغـادرة، وعنـد خروجـه ناداه إبراهيم وقال له:

_انتظـر أريـد أن أتمـشى معـك قلـيلاً قـد مللـت النـوم في الفراش.

_لكن أنت مريض وعليك البقاء في السرير.

_إن هذا السرير هو ما يجعلني مريضاً أما أنا في حالة جيدة.

خرج محمود وإبراهيم ومشوا في البهـو الكـبير، وإذ بـصوتٍ يـرن في أذنـه جعلـه يتوقـف في مكانـه، التفـت ناحيـة الـصوت وكأنـه يعرفـه وهـا هـي سـلمى تنـادي أحـد أبنائهـا، فقـال لإبراهيم:

_أليست تلك سلمى.. بلى إنه صوتها.. انظر إنها هي ماذا تفعل هنا؟

_لا أعرف فلم أراها من قبل.

اتجه محمود نحوها وكانت تكلم ابنها وهي لم تنتبه إلا وهو أمامها بانت الدهشة على وجهها وارتبكت في البداية فردت عليه السلام بعد أن سلم عليها، وقال لها:

_خيراً إن شاء الله لما أنت هنا؟

_زوجي هنا يريد إجراء عملية جراحية.

_عليه العافية.

ومد يده لمصافحتها، وحين التقت يداهما شعرا بالدفء الذي كان قبل سنينٍ طويلة، فسحبت سلمى يدها بسرعة دون أن تنظر إليه، وقالت:

_تفضلا بالدخول إن عادل مستيقظ.

دخل محمود وإبراهيم ومنى وسلم الجميع عليه، وتعرف محمود بأولاد سلمى، كانوا أربعة شباب وفتاة في مقتبل العمر، وكلهم متعلمين، وتفاجأت سلمى حين عرفت أن

محمود أطلق على ابنته اسمها ولكنهم سرعان ما غادروا لأن المرض دخل عليهم وطلب إخلاء الغرفة.

غادر محمود المستشفى صامتاً ولم ينطق بكلمة واحدة طوال طريق العودة، ولاحظت زوجته هذا الشرود الذي بدا واضحاً على وجهه لكنها لم تناقشه أبداً في ذلك إلى أن وصلوا بيت أخيها الذي يسكن في المدينة لتبقى هناك وأخبرها أنه لديه بعض الأعمال سيتممها، حتى رفض الدخول للغداء بحجة العمل.

ذهب محمود إلى أحد المقاهي وأخذ ركناً هادئاً وطلب فنجان قهوة وجلس محتاراً لا يدري ماذا حصل بداخله، وكأنه بركانٌ خامدٌ وثار فجأةً، شعر بأنه بدأ يفقد اتزانه لذلك أراد أن يكون وحيداً حتى لا تلاحظ زوجته ارتباكه.

أصبح الماضي أمامه وكأنه كتابٌ مفتوح، يقلب صفحاته ويقرأها كلمةً كلمة وعاد به الزمن ثلاثين عاماً إلى الوراء وصار يخلط أحاسيسه منذ بداية حبه لسلمى.

صار يتذكر الأغاني التي كانوا يغنوها حتى قبل حبه لها في جلساتهم وحفلاتهم في القرية، وصار يتساءل عن هذه

الـصدفة الـتي جمعتـه بهـا، ولمـا في هـذا الوقـت بالـذات، ولمـا حدث له ذلك وهذا الشعور الذي انتابه.

بقـي محمـود في المقهـى حتـى سـاعةٍ متـأخرة ومـا أن ينهـي فنجانه حتى يطلب أخر وعندما انتبـه للوقـت أنـه صـار متـأخراً عاد إلى بيت أخ زوجته واعتذر على تأخره وبرر ذلـك بالعمـل ثم ذهب إلى فراشه لينام فتبعته منى، وقالت له:

_ما بك يا محمود هل أنت مريض لا سمح الله.

_لا أنـا متعـبٌ قلـيلاً لا تـشغلي بالـك استـمتعي بـسهرتك علي النوم فغداً عندي عمل كثير ويجب أن استيقظ باكراً.

تركته منى ليرتاح وأطفئت النـور، معتقـدةً أنـه سـينام لكـن محمود لم يغمض له جفـن في تلـك الليلـة، وحتـى حـين نامـت زوجتـه بجانبـه لم يـشعرها أنـه مـازال سـاهراً ولكنهـا أحـست بتقلباته الكثيرة على السرير.

وعند الـصباح سـألته عـن سـبب قلقـه الكـثير في الليـل فـبرر ذلك بعدم راحته في النـوم، خـرج بـاكراً بعـد أن شـرب القهـوة مع أصحاب البيت وتوجه إلى المستشفى ليرى إبراهيم.

دخل محمود المستشفى بواسطة أحد أصدقاء إبراهيم لأن موعد الزيارات لم يحن بعد وعندما رآه إبراهيم ضحك منه، وقال له:

_أهلاً محمود توقعتُ زيارتك اليوم لكن ليس مبكراً إلى هذا الحد.

_اسكت ولا تبدأ بالتعليق انشغل بالي عليك وجئت لأراك.

_من جهتي صدقتك ولكن لا أعرف إن كان هناك غيري من يصدقك على كل حال أهلاً بك.

التفت محمود في أرجاء الغرفة ولم يجد أخته عليا فسأل إبراهيم عنها.

_أين عليا لا أراها؟

_إنها مع سلمى فاليوم سيجري زوجها العملية وأنت تعرف كم يحبان بعضهما.

_أجل..

قالها محمود ويبدو على وجهه الكلام الكثير فسأله إبراهيم:

_أخبرني ماذا جرى لك البارحة لاحظتُ ارتباكك الشديد تكلم لا تقلق لن أفشي سرك.

تنهد محمود وأخذ نفساً عميقاً:

_ماذا تريدني أن أقول وما نفع الكلام الآن.

_تكلم سترتاح.

_أتعلم.. حين رأيتها شعرت بأن كل شيء قد توقف، وكأن السنين الطويلة لم تمر، لقد كبحت مشاعري لثلاثين عاماً وأكثر ولم أنساها، وعندما تزوجت من منى أكذب إن قلت أني أحببتها بكلي، لكني أحترمها وأقدرها وهي تفهمني وتجعلني سعيداً وخاصةً بعد أن صار لدينا أولاد، لكن هذا الكبت الذي كنت سجنته في جوفي وأوصدت عليه الأبواب وأكثرت من الأغلال فوقه انفجر دفعةً واحدة حين وضعت يدي بيدها، كأن ذلك اليوم الذي دغدغتني فيه بالقلم حدث ساعتها، فشعرت بقشعريرة جامحة تجتاح تفاصيل جسدي، كنت أنظر إليها لكنها امتنعت من النظر إلي وكأنها خائفة أن تلتقي عيوننا ببعضها وتبدأ بأحاديثٍ لا تريدها.

قاطعه إبراهيم قائلاً:

_أنا أشعر بك وأقر مشاعرك وعواطفك لكن ليس عليك الاسترسال بمشاعرك أرجوك وإلا دمرت حياتك فكما قلت لك في السابق لكلٍّ منكما حياته وهذا لن ينفعك بشيء ولن يصيبك سوى العذاب.

_أعرف هذا وأنا لا أريد تغيير شيء لا سمح الله وأنا قد رضيت بما كتبه الله لي والحمد لله عندي زوجة أكثر من رائعة ولن أعبث بمشاعرها أو أسبب لها الألم لكن الأمر ليس بيدي

_أنا أعرف ما أنت فيه وأعرف كم لديك من العقل والحكمة وما حدث سيهدأ من أشواقك ولكن عليك أنت أن لا تنجرف في الطريق الخطأ فتؤذي من حولك.

_إن البارحة أشعرني بالراحة كنت أفكر كثيراً باليوم الذي قد نلتقي فيه كيف سأواجهها وبعد مضي كل هذه السنين وأنا أمثل دور السجان وقلبي المسجون وسأكمل هكذا وليسعدها الرب بهذه العائلة الجميلة التي لديها.

بينما هم غارقون في الكلام دخلت عليا وسلمت على محمود وأخبرتهم بأن عادل أنهى العملية وهي ناجحة كما أخبرهم الطبيب.

اطمئن محمود على صهره وعاد إلى زوجته وأخذها إلى بيتهم واحتضن عائلته بدفءٍ كبير وقرر إكمال حياته مع هذه العائلة الصغيرة التي زاد حبه لها أكثر بعد ذلك اليوم وتلك الثورة انطفأت في داخله وتحولت إلى فيضٍ كبير من الحب لعائلته وزوجته حتى أنه أخبرها بالسر الكبير الذي أسماه الحب والغربة وصارت حياته أجمل من ذي قبل وبقي حبه ذاك مجرد ذكرى أو قصة مرت في حياته.

بين زمانٍ وقدرِ

تعبتُ..

أتعبني الزمانُ ورماني

في أوديةٍ كلها شوقٌ للماضي

شقَ في صدري طريقٌ للألمِ

في البداية مدَّ يدهُ وساعدني

حملني على كفهِ برفقٍ وأعطاني

حتى ظننتُ أنني نلتُ مرادي

لكنهُ في برهةِ عينٍ ضيعني

دونَ تحذيرٍ أو مقدماتِ

كسرعة البرقِ صعقني

كان غدرهُ أقسى من غضبِ البحار

دارَ خمس سنينٍ للوراءِ وعاش بي

لحظاتٍ أحاول نسيانها

أيامٌ قضيتها مع حبيبتي

بصوتها ورقتها وضحكتها

وفي لحظةٍ حرمني..

كنت اعتقدتُ أن جرحي باتَ يلتئمُ

والنسيانُ أقفل وجعَ الماضي

فقلبَ القدر عليَّ أحزاني

وانهارت قوايَ أمام ذكرى القبلاتِ

سرقَ الصبرَ من جوفِ الجوفِ

ومن ماء الملحِ سقى جرحي

راحَ يلعبُ بجسدي كالريحِ مع البحارِ

ينبشُ بين أوراق طويتها

قلتُ عنها صارت من الماضي

يمص من دمِ قلبي كعنكبوتٍ

وقعت في الشبكة فريستهُ

انقضَ بلحظةٍ وخطفني

زرعَ الخشوعَ في حركاتي

ثم ضحكَ على بكائي

وأنا..

أرتمي بين زمانٍ وقدرِ

الليلة الأخيرة

في هـذه القـصة القـصيرة والـتي تحكـي أحـداثها عـن ليلـةٍ واحـدة فقـط وعمـا جـرى في تلـك الليلـة مـن أحـداثٍ غريبـة وتأثيرها في حياتنا وعما نسمعه من أشياءٍ تحدث بين النـاس أو في داخل البيوت خلف أبوابها المغلقة.

بدأت القصة قبل ست سنوات حين أحبهـا وأحبتـه وصـار الاثنـان يلتقيـان عـن قـرب أكثـر وهـذا الحـب صـار ينمـو في الأحـشاء ويـبني جـذوره بعمـق ويتمـسك بوجـوده كأشـجار الـصنوبر في أعـالي الجبـال عـشقت جـذورها الأرض مقاومـة الأعاصير والرياح لأجل البقاء.

مـضت الأيـام والـسنين والحـب مـازال صـامدٌ في وجـه التحديات والنزاع على القلب قائم من عند الأصحاب ولكـلٍ منهما ندٌ يحاول سرقة الآخر.

بعد هذه المدة الطويلة اتصلت بـه وقالـت أنهـا بحاجـةٍ ماسـة لرؤيته وهو الذي لم يقل لها لا مهما كان وجه الخـلاف بينهمـا فقد تعاهدا أن الخلاف لن يقف يوماً في وجه حبهم.

جاءها مسرعاً حاملاً بين يديه وردةً جورية قطفها من حديقة منزله الصغيرة ليقدمها لها وحين وصل إلى مكان اللقاء لم يجدها فجلس ينتظر قدومها فهو لم يراها منذ حوالي عشرة أيام واشتاق لها كثيراً وكان بحاجة ماسة ليحضنها ويقبل شفتيها ويضع رأسه على صدرها.

جاءت تمشي وصوت كعب حذائها يرن في أذنه واضعة نظاراتها السوداء تبدو من بعيد كئيبة غير متوازنة.

وقف يستقبلها بالابتسامة المشرقة وحين مد يده ليصافحها شعر بها باردة جداً كأنها للمرة الأولى التي يلتقيان ببعض استغرب تصرفها وسألها.

_ماذا هناك لما هذا البرود... ؟

حينها أزالت النظارة عن عيونها ببطء شديد وقالت له :

_هنا الدرب توقف والطريق بيننا انتهى وقد صرنا في آخر المشوار أرجو أن تنسى كل الذي كان.

أطبق أصابعه على الوردة بشدة حتى أتلفها غير مصدق ما يسمع.

_لماذا ما الجديد؟

أمسك يدها وشدها إليه فرأى الخاتم يلمع في أنامل كفها اليمنى أمعن النظر فيه ووقف دون حراك ولم يقل شيء.

ثم تنهد بعمق وقال لها:

_ما هذا الذي في أصبعك؟

_وما الذي تراه أنت؟

_هكذا إذاً هذا هو قرارك ومنذ متى صار هذا.

_ليس من بعيد منذ أيام فقط.

_لهذا لم تجيبي على اتصالاتي ورسائلي وأنا الذي كنت أظنك مريضة وكان بالي مشغولٌ عليك وأنت تتلاعبين بي وأنا الغبي الذي حين قلت أنك تواجهين بعض الضغوط قد صدقتك.

_هكذا أفضل لنا نحن الاثنين.

قاطعها بغضبٍ شديد حيث أنه انفعل من كلماتها.

_أفضل... عما تتحدثين أنت بعد كل هذا الوقت الذي قضيناهُ سوياً تقولين هذا أفضل أتعلمين شيئاً لم أكن أتوقع منك هذا التصرف أبداً.

_لكن الأمر ليس كما تظن.

ـ كيف إذاً لن أسامحك على خيانتك هذه أبداً ما الذي فعلته؟

قال هذه الكلمات وأدار ظهرهُ لها ورحل والغضب الشديدُ يملأ وجهه المتهجم العابس بشدة حاولت هي أن تشرح له موقفها لكنه بقي يمشي ولم يلتفت ناحيتها أبداً ليرى الدموع على خديها تكاد تتلف وجهها.

أخرج من جيبه علبة السجائر وتناول واحدة فسقطت منهُ أرضاً وابتلت بالماء الموجود على الأرض فشتمها وتناول واحدةٌ أخرى وأخرج علبة الكبريت وتناول عود الثقاب بغضب ثم أشعل سيجارته وبدأ يدخن.

صار يمشي في الشوارع قاطعاً المسافات الطويلة دون شعور حتى لم يرغب في ركوب سيارته بل فضل المشي ليخرج الغضب المكنون في جوفه.

ظل يمشي لساعاتٍ طويلة كانت المدينة خلالها خاليةً تماماً من البشر والحركةُ قد توقفت في شوارعها العريضة لم يشعر بالوجود ولا وجوده على الأرض كان كالريح الغاضبة نارٌ تقذفُ بحممها فوق جسده المشتعل.

تأخر الوقت وحان وقت العودة إلى المنزل وسيارته مازالت مركونةٌ أمام الحديقة عليه العودة ليجلبها ولا بد أن والديه قلقان عليه فلم يعتد السهر خارج المنزل إلى هذه الساعة المتأخرة وقد قارب الضوء على الظهور.

وصل البيت فارتمى فوق سريره كالقتيل مشاعره محطمة وقلبه مكسور والحياة في عيونه انتهت ولم تعد ذات معنى.

كانت الأيام تمر والنسيان لا يمر ولا يأتي إليه أبداً وذلك الصرحُ الكبير الذي يدعونهُ الحب قد انهار وغمرته الأمواج في كنفها.

صار ذلك العاشق المغدور به يستاءُ يوماً بعد يوم وأحواله تتراجع إن كان في أعماله أو دراسته أو أي شيء يقدم عليه.

وكان كلما عاد إلى المنزل يدخل غرفته ويستلقي على سريره ويبدأ بتأمل سقف الغرفة ويبدأ بتنهدات متتالية ويتحدث مع أوهامه معاتباً إياها متسائلاً عن أسباب هذا الفراق المفاجأ.

في بعض الأيام يتحدث إليها وكأنها بجانبه ويتذكر بشكلٍ لا واعٍ أجمل الأيام التي قضاها معها وتلك اللحظات

والضحكات التي لا تنسى وأيام احتفالهم بعيد مولدها الأول حيث ذهبا إلى أحد المطاعم الكبيرة وقضيا يوماً ليس بالسهل نسيانه بجنونه وصراخه ولذته هناك كان الجنون بلا وطن من الرقص والركض في أنحاء المطعم واللعب والحب الذي لا أحد يتوقع أنه سينتهي بهذه الطريقة.

في يوم ٢٠٠٨/٩/١

دخل غرفته عند الظهيرة اليوم عيد مولدها الثاني والعشرون والعيد السادس لهما معاً فالسنوات الخمس التي مضت كانا يحتفلان معاً بعيد مولدها أما في هذه السنة ستحتفل بعيداً عنه ولن يعطيها قبلة العيد التي يحبها أكثر من أي قبلةٍ يأخذها فهو يشعر بها أغلى من كل شيء.

صار يتحسس شفتاه بأنامله ويستطعم بتلك القبلة التي يحب لذتها على شفتيه استلقى على سريره وهو محتارٌ كيف سيمضي هذا اليوم بعيداً عن التي أرادها في كل يومٍ أكثر من الذي قبله له وحدهُ.

عندها أدرك أنه يجب عليه القيام بشيءٍ ما فقام عن سريره بسرعة وارتدى حذائه واتجه إلى السوق ليحضر بعض الأغراض اللازمة.

صار ينتقي ألوان سهرته اليوم فجلب من الورد ما يبهج الروح ويحيِّ القلب من هنا وهناك ومن كل مكان وكان كل شيء على هواه فالليلة هي مميزة بالنسبة له ويجب أن يكون كل شيءٍ كامل بقي في السوق حوالي الساعتين.

أحضر الكثير من الحلوى والفاكهة اللذيذة حتى قالب العيد اختاره كما هي تحبه وعاد إلى البيت فدخل غرفته مباشرةً ليضع الأغراض فيها لأنه لا يريد أن يراه أحدٌ من أهله فيسأله عن سبب هذه الأشياء التي أحضرها معه.

كانت الساعة حوالي السابعة حين بدأ بتحضير الغرفة للاحتفال.

وقبل البدء بالاحتفال الذي أراده أن يكون حقيقياً وكأنها بجانبه أخذ من الخزانة ورقة وقلم وبدأ يكتب رسالته الأخيرة...

الحب الذي لا يموت

مرحباً بك سيدتي في عالمي الجديد... عالمٌ صنعتهُ يداك في جسدي.

كان فيما مضى يفوح بعطر الياسمين لكنه اليوم صار يشبه رائحة الموت المعذب يائسٌ بكل في الوجود لهذا جئت اليوم أشكرك... شكراً لك على كل لحظة عشتها معك على كل أمل عشت به معك شكراً لك على ليلة هي العمر كله عندي حين أطلقنا لجسدينا العنان وتحت ضغط الأذرع والقبلات كانت أرواحنا تأبى الفراق أو حتى انتهاء ذاك الشعور ما أجمل همس تنهداتك في أذني كانت أجمل من همس الفراشات في الربيع أخذت يديَّ وقلت لي... خذ ذراعيَّ شدهما إليك.. أحضن جسدي بشيء من قدسية الشعور باللذة والشغف خذني إلى عالمك البعيد عن الألم خلف الهضاب الخضراء فأنا طول العمر لك.

في ذلك اليوم شعرت أن عمري ابتدى وصوت الجلاد قد انتفى فقلت في نفسي سأحيا لك اليوم وغداً ولن يكون في عمري غيرك أبداً.

ثم أتيت إليَّ اليوم...

حاملةً بين ذراعيك حبوب الألم تغرسين سكاكين الفراق في صدري...لماذا يا حبيبتي؟

لماذا؟

أسمع في نبرة صوتك حقدٌ لا يغتفر لو تطاير في الجو لقطع حتى الشجر أهذا جزائي أنا وحبي المنتظر ما كنت أظن أن وعدك سينهار هكذا أين رقة كلماتك وحبك لي حتى ثقتك بي صارت ضربٌ بالوتر تهتز مع الريح دون خبر.

ما هذا الذي جرى... ؟

ضروب الوجع تنهمر فوق جسدي كالمطر وسوط الجلاد على ظهري أضحى مؤلماً.

سأقول لك ما أنا.

أنا الذي أحبك بعمق الكلمات وتفاصيل الحروف رسمت اسمك أغنية سعيدة أغنيها مع البلابل في كل الفصول ليكون ابتسامة صباحي الجميل أنا مجنونك أنت الذي لم ولن يكلَّ عن حبك يوماً ستبقين في قلبي الحب الذي لا يموت إلى أن أموت.

سأبكي حبك وفراقك ولن أخجل حين يسألوني عن بكائي ودموعي... سأقول لهم هجرتني حبيبتي ولن تجف دموعي أبداً مهما حييت إلى أن يجف الدم في عروقي وأسقط قتيلاً كورقة الخريف.

حبي الذي لا يموت...

هكذا أسميتك وهكذا ستبقين.

في هذه السطور أكتب إليك آخر الكلمات المتبقية في جعبتي طلبت مني النسيان وقلت سترحلين وحين سألتك سر القرار الكئيب قلت.. وماذا بعد إلى أين سيوصلنا هذا الطريق سؤالٌ دمر كل شيءٍ في حياتي حطم الأجوبة فوق حنجرتي أطبق الخناق على صدري وأنا الذي كنت دائماً أحلم بك نائمةٌ بجانبي غافيةٌ بأمان أمسح بيديَّ شعرك الطويل وأتأمل وجهك البريء إن حاول البرد التسلل إليك أغطيك بدفء جسدي وأطرده إلى البعيد إن حاولت الشمس الدخول إليك عبر مسامات جلدك أطفئها بقوة حبي.

لطالما حلمت بك تضعين رأسك على صدري وتقولين أحبك وحين تبعدينه لحظة ترتدين بقوة وتحضنيني بذراعيك وتقولين لا تبتعد قد اشتقت إليك وتقبليني بشغف بقبلةٍ تضيء عمري.

صدقيني...

حين تبتعدين أشعر بأن كل شيءٍ في الوجود قد توقف لأنك الوجود في حياتي... أنت دنيتي وهنائي حبيبة عمري لا ترحلي أرجوك.

أرجوك بسم حبنا الكبير... بسم كل شهيد مات في الحب... بسم روحٍ أعلنت أنك الحياة لا ترحلي أبقي بقربي فالرحيل يشبه طعنات الأسيل.

قررت الرحيل...

ارحلي حيثما تريدين وأسكني في قلبك من تريدين.

لكن...

لا تدعي أحداً يقبلك بطريقتي أو يلمسك بأسلوبي.

أحبيه بالطريقة التي تريدين أحبيه أكثر مني لا مشكلة عندي... لكن ليس كما أحببتني.

قد تنسي اسمي يوماً لكن اسمك سيبقى معي إلى الأبد.

أنت إلى حياتك الخاصة سترحلين... ليكن الله معك لكن أنا لن أعيش... سأرحل بعيداً إلى دنيا الآخرة هناك حيث تتحقق الأحلام عند الإله سأطلب منه أن يمنحني حوريةٌ سمراء تشبهك بكل شيء (بعنادك... برسمك.. بتفكيرك... بصوتك... بكل صفاتك التي عرفتها)

وأوصيك...

حين يلبسوني الكفن الأبيض أريدك أن تزغردي وتهللي لموتي لأنك ارتحت من عذابي الذي قلت أنك تعانيه وأنني سببته لك وبعد دفني في ظلمة القبر الضيق اذكريني ببعض

الخير وفي كل ليلةٍ قبل أن تنامي أشعلي شمعة على نافذة غرفتك لتعرف روحي مكان وجودك فتأتي إليك تجلس بجانبك تؤنس غفوتك وتحرس أحلامك وتحميك من عيون الغدر فأنا منك وإليك أعود.

عاشقك إلى الأبد

أنهى رسالته ثم اتصل بصديقه وقال له يوجد في البيت رسالة أريد أن توصلها إلى حبيبتي ولكن ليس اليوم إنما في اللحظة المناسبة.

وبعدها بدأ بتحضير الغرفة للحفلة التي يريدها...

وضع الطاولة في المنتصف ثم وضع فوقها الوشاح المزركش الذي أحضرهُ معهُ خصيصاً لهذه المناسبة وبدأ بترتيب الطاولة بشكلٍ يجعلها تشبه إلى حدٍ ما طاولات الملوك بأناقتها وترتيبها.

فالكؤوس من الزجاج الفرنسي الصافي والملاعق والشوك والسكاكين اختارها من الفضة وكان المشروب الرئيسي هو الويسكي.

ثم قام بنثر بعض الورود على الأرض والطاولة وأشعل الشموع في الشمعدان وفي قالب الحلوى ثم سكب الويسكي في الكأسين.

عند حوالي الساعة العاشرة والربع كان كل شيءٍ جاهز ولم يتبقى سوى حضور الحبيبة والجلوس في مكانها على الطاولة.

لاحظت والدتهُ تحركاته الغريبة الغير المعتادة وأنه دخل الغرفة وأقفل الباب على نفسه ومنع الدخول إليه لأي سبب لكنها ظنت أنه يريد النوم أو الاسترخاء دون أن يزعجه أحد لذلك لم تهتم كثيراً للأمر فبقيت جالسة تحيك الصوف بالصنارة.

الساعة قاربت العاشرة وأربعون دقيقة...

اقترب من الباب وفتحه فكانت هي قد ارتدت ذاك الفستان الأسود الطويل الذي لا يحمل كتفاه سوى شريطين رفيعين والصدر الفسيح والظهر المكشوف وتلك القامةُ الممشوقة المليئةُ بالكبرياء والعنق الذي حطت فوقه أرقى أنواع العطور المسماة في عالم الأنوثة...

انحنى أمامها مرحباً والابتسامة المليئة بالحزن المغرور تملأُ شفتيه المسدلة الزوايا ثم أمسك بيدها واقترب بها إلى الطاولة الملكية وأجلسها على كرسيها ثم جلس أمامها وسكب المشروب في الكأسين وكان قد اختار لهذه المناسبة الويسكي.

رفع كأسه نخب عيد مولدها الثاني والعشرون وقال لها:

_في هذا اليوم يا حبيبة عمري سأقدم لك أي شيءٍ تطلبينه مني دون أن أقول لك كلمة لا أطلبي ولا تترددي أطلبي الزواج مني أو انتحاري قد لا أملك كل ما تتمنين لكني أملك في جوفي حبٌ كبير لن تجديه عند أي رجلٍ آخر وكل عام وأنت حبيبتي..

شرب الكأس في رشفةٍ واحدة ثم اتجه نحوها ودعاها إلى الرقص معه على أغنيةٍ رومانسية اختارها لتكون الرقصة الأجمل في تاريخ حياته.

كانت أقدامه تتنقل بخفة لم يعهدها من قبل وكأنه تدرب على هذا النوع من الرقص سابقاً.

وبعد ذلك اتجه نحو علبة الموسيقى وأدار الصوت عالياً ليستمتع بالرقص أكثر ورقصا على الأغنية الأولى والثانية

والثالثـة وبقـي يـرقص إلى أن تعبـت قـدماه وبعـدها اتجهـا إلى الطاولة ليطفآ الشموع ثم أمسك السكين بيده ووضع يدها فوق يده وقال لها أن تتمنى أمنية قبل تقطيع قالب العيد.

قبلها ثم سكب في طبقها بعض الطعام والحلويات وأعاد ملئ كأسهُ بالويسكي والثلج وأشعل سيجارة.

صار يشرب ويشرب وكلما فرغ كأسه أعاد ملئه من جديد إلى أن سيطر السكر عليه وفقد توازنه على الأرض حتى الدخان كان يدخن بشكلٍ غير اعتيادي فما أن ينتهي من واحدة حتى يشعل الأخرى.

في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف عاد والدهُ إلى المنزل وهو يفتح الباب سمع صوت الموسيقى الصاخب الصادر من البيت فغضب بشدة ودخل بسرعة.

وجد زوجته في غرفة الجلوس تحيك الصوف فسألها عن الضجة الموجودة في غرفة ابنه.

أخبرته أنه منذ عاد دخل الغرفة وأقفل الباب على نفسه ولم يجيب على اتصالات أصدقائه بل بقي سجين الغرفة وأن تصرفاته لم تكن عادية اليوم وكأنه يخفي شيئاً في داخله.

في الأيام العادية لم يكن هذا الشاب يستطيع أن يرفع صوت الموسيقى أو التدخين في البيت وخاصةً إذا كان أحد والديه موجود فكان يستغل فرصة غيابهم ليستمع إليها كما يشاء أما اليوم فهو غيرُ مبالٍ بوجود والديه لهذا قرر والده الدخول ليجعله يخفض الصوت ولم يكن على علم بما يجري في داخل الغرفة الصغيرة.

طرق الباب حين لحقت به زوجته تترجاه أن لا يغضب على الولد أو يصرخ في وجهه لأنه يجد في الموسيقى ما يفرغ طاقته الكامنة.

ثم طرق الباب مرةً أخرى ولكن ابنه لم يجيب فظنه لا يسمع من الصوت العالي حينها أمسك قبضة الباب محاولاً فتحه وصار ينده على ولده ليفتح له لكنه لم يجيب.

أما في الداخل كان الشاب يذرف الدموع على الحب الضائع الذي وهبه كل ما يملك وها هو ينهار اليوم بشكلٍ لم يتوقعه قد لعبت الأقدار لعبتها وصارت الأديان هي سبب الفراق وبين اختلاط الحزن بالألم قال لطيفها :

_ عـشقاً مـا مـن عاشـقٍ مثلـي... مـا مـن عاشـقٍ يحـبُ بطـريقتي... أنـا الـذي أسـطر القـوانين في حـبي... فصارت لكل عاشقٍ في الهوى دربٍ... لهبُ الثورات في قلبي... إيـاك والظـن في صدقي... فأنا ثورةٌ أقسى مـن ثـورة البراكين.... أقترب وأقبـل الصمت علـى شفتيك... دعيني لا تعارضي رغبتي.... لأثير في جسدك كل مـا تـشتهي... فأثمـلُ مـن ريـق ثغـرك... وأنـام فـوق الـسرير... كيـف لا أبـالي...المهـم أنـكِ بجـانبي... قتـيلاً كنـتُ أو... أنت اختاري.

وقال الكثير من الكلمات التي حاول فيها إطفاء ناره المتقدة في الخـارج خلـف البـاب الموصـد كـان والـده خائفـاً جـداً وزوجتـه تلـح عليـه ليكـسر البـاب فـصار يدفعـه بقـوة إلى أن انفتح...

دخل الوالدان الغرفة ليجدها ولدهم جالساً خلـف الطاولـة منهاراً من كثرة الشرب وعيناهُ محمرتان من البكاء ويتحدثُ إلى أحدٍ ما في الغرفة ولكنهم لم يجدوا سواه فلـم يكـن هنـاك مـن أحـدٍ موجـود نظـرا إلى الغرفـة المليئـة بـالورود المفروشـة علـى الأرض والطاولة والشموع المضاءة في أرجاء الغرفة.

سحب الوالد كابل مكبر الصوت واقترب من ولده مستغرباً حاله التي يرثى لها عندها التفت إليه الشاب وقال له:

_ أهلاً أبي تعال لأعرفك بحبيبتي إنها الحب الذي أعيش لأجله انظري يا حبيبتي هذا والدي الذي حدثتك عنه وهذه أمي الطيبة انظري إليها يا أمي أليست جميلة لقد اختارها قلبي.

عندها فهم الوالدان وجع ابنهم والذي يعانيه فقد كان يلمح لهم فيما مضى عن الحب والزواج من خارج الطائفة لكنهم لم يعيروه اهتماماً لما يحكيه بل كانا يظنان أنه مجرد كلامٍ يخرج من ثغره.

اقترب منه الوالد وأمسك بيده:

_تعال يا بني دعنا نخرج قليلاً.

عندها أفلت يده وقال:

_لا يا أبي علينا البقاء فمن غير اللائق تركها وحيدة وخاصةً أن اليوم هو عيد مولدها ما رأيك لو تشاركنا أنت وأمي الاحتفال.

كان الوالد يريد من الخروج جعل ولده يستنشق بعض الهواء النظيف ليصحو قليلاً من سكره ومن رائحة الغرفة المخنوقة بالدخان الكثيف من سجائره.

حاول الوالد سحب ابنه للخارج وقال له:

_تعال لنخرج نتحدث قليلاً ثم تعود لكن علينا التكلم أولاً.

قام الشاب عن كرسيه أخيراً وصار يتكلم بلسانٍ ثقيل وكلمات متلعثمة لا يفهم منها إلا القليل وفجأةً أمسك بالطاولة ورماها أرضاً وبدأ بتحطيم كل ما يمسك به ويصرخ بعالي صوته معاتباً الله على إنزاله الأديان المتعددة والطوائف المتناحرة وحين حاول والداه إمساكه وتهدئته مذهولين الجنون الذي أصابه.

صار كل شيءٍ مرمياً على الأرض محطماً كفؤاده والورود تناثرت أوراقها كما حبه الكبير.

لم يستطع والداه تهدئته فقد ارتمى على الأرض وصار يبكي بشدة لم يراه أحدٌ في هذه الحالة أبداً.

ركض والده إلى الغرفة المجاورة ليكلم الطبيب ويخبره بما جرى وحين عاد إلى الغرفة وجد ابنه مستلقياً في حضن أمه كالقتيل والأنين يخرج من صدره كمن يتلفظُ أنفاسه الأخيرة ووالدته تبكي حاله وتحاول إيقاظه برش الماء على وجهه فقالت له صارخةً:

_أفعل شيئاً أرجوك نكاد نخسره انظر إليه إن نفسه يضيق ولا يستفيق.

صار يخبط بكفيه على خدوده ويحاكيه دون جدوى ثم عاد واتصل بالطبيب مرة أخرى ليتعجله كانت الدقائق القليلة لوصول الطبيب كأنها ساعاتٍ طويلة تمر على الوالدين حينها أجروا أكثر من سبعة اتصالات به.

فجأة أفاق الشاب من غيبوبته ونظر إلى والديه ثم التفت في أرجاء الغرفة بعيونٍ تدلُ على أنه غير واعٍ بما يجري حوله ثم صار يشد بقبضته على يد أمه حتى آلمها ذلك وفتحت عيونه أكثر بدوا جاحظتين جداً أخذ نفساً عميقاً ثم تبعه شهقةً قوية وأخرى مثلها وأرخى يده عن أمه وتوقفت كل حركاته.

صارت أمه تحاكيه وأبيه ناديه ويرجوه الاستيقاظ فقالت الأم:

_إنه لا يتنفس

_ما الذي تقوليه

واقترب منها بسرعة

_لا أدري لكني لا أشعر به يتنفس وقد برد جسده واصفر لونه ألا ترى.

_فقال لها ابتعدي لأرى.

صار يضغط على صدره ثم وضع أذنه ناحية قلبه فلم يسمع نبضه صار يرتجف حائراً ماذا عليه أن يفعل.

وصل الطبيب وعندما رأى الشاب بهذا الحال طلب الإسعاف مباشرة مع أنه يعرف من البداية أنه لا جدوى من ذلك لكنه لا يستطيع إخبارهم بحالة ابنهم.

وصلت سيارة الإسعاف وحملوه المرضون ومباشرة في داخل السيارة بدؤوا بإجراء الإسعافات الأولية ريثما يصلون المستشفى.

ركب الوالدان سيارتهم وانطلقا إلى المستشفى والدموع تملأ خديهما وهم يجهلان مصير ولدهم.

أدخله المسعفون غرفة الإنعاش وركض الأطباء بسرعة محاولين إنقاذه بالصدمات الكهربائية والتنفس الاصطناعي وما يملكون من أجهزة تساعد في إنقاذه باذلين أقصى جهدهم.

في هذا الوقت كان الولدين واقفين في غرفة الانتظار الأم مكتفة اليدين وملقيةً رأسها على الحائط والأب يفرك يديه بعضهما ببعض ويمشي في الغرفة والسكينة لا تعرف الوصول إلى قلبيهما وكان إذا خرج من الغرفة أحد يسألانه عن حال ابنهم.

الساعة الثانية عشرة والنصف تقريباً...

خرج أخيراً الطبيب حاملاً الخبر اليقين ودعاء الوالدين بخروج ابنهم سالماً لم يتوقف فركضا نحوه بسرعة متلهفين خائفين.

قال لهم:

_أنا آسف لقد بذلنا قصارى جهدنا ليصبركم الله على فاجعتكم.

لم يصدق الوالدين ما سمعا أو لنقل لم يتوقعا هذا الخبر فحاولا الاستفسار عما حدث فقال لهم الطبيب:

_لقد أصيب بسكتةٍ قلبية ولم نستطع أن ننقذه.

انهارت الأم وصار الوالدين يبكيان ابنهم على ضياع حياة ابنهم ذو الست وعشرون عاماً وآخر ما يفكران به هو موته حسرةً على حبه.

ذلك الحب الصافي المجرد من الأكاذيب واختلاق الأعذار الخالي من جميع أنواع الملذات الجسدية المبعثرة فوق السرير ذلك الحب الذي دام ست سنينٍ دون انقطاع أو ملل أحدهما من الآخر.

قد نملك كل شيءٍ في أيدينا ونحكمه بإرادتنا الحكيمة والصلبة لكن الحب القلب من يختاره ولا نستطيع التدخل فيما يريد ما علينا سوى الانصياع لأوامره والقبول بما يمليه علينا من أحكام مهما كانت قاسية.

فلو شاءت الأقدار لجمعت كل المحبين تحت سقف واحد ولكان انتهى هذا العذاب من الوجود وعاش العشاق في جنة من السكينة والراحة دون اقتراف الذنوب أو الموت من النحيب.

أما الأديان السماوية فكلها قد أنزلها الله علينا ويجب أن نقبل بما أراده الرب في عالي سماه.

أليسَ لهفهفاتِ القلبِ المشتاقة

صمتٌ يشبهُ الصّلاةَ عند الركوع

وأنثى مُشتاقة....

تتدارى خلفَ بواباتِ الشَّوقِ الجامح

تسمعُ صوتَ الحبيبِ

القادمِ من هديلِ الحمامِ الزاجل

في لحظةٍ أشبهَ بالحلم

تستذكرُ صوتَ الجلادِ الرابخ

في عاداتِ بلاديَ العتيقة

فتبْكي الحبَّ الذي قتلهُ سِكينُ الصمت

وتتساءل....؟

عن موؤودةٍ سُئلتْ....

بأيِّ ذنبٍ وُئدت....؟





